وليم الخازن
دكتوراه دولة في الآداب العربية

تباشير النهضة الأدبية

دار العلم للملايين

تباشير النهضة الأدبية

وليم الخازن
دكتوراه دولة في الآداب العربية

نباشير النهضة الأدبية

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب: ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨٦٣٤٧٤
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

أيلول / سبتمبر ١٩٩٢

الإهـــداء

إلى زملائي الأساتذة
وإخواني الطَّلَبَة،
لعلَّهم يجدون في كتابي هذا
محاولةً تدفعهم إلى قراءات
جديدة في تاريخ آدابنا
ومناقشة «ثوابته».

مقدمة

يعود اهتمامنا الجدِّي بآداب النهضة العربيَّة الحديثة إلى أواسط الستينيّات، يومَ بدأ أستاذنا النهضويّ الكبير الدكتور جبور عبد النور (١٩١٣ ـ ١٩٩١) يُشرف على أطروحتنا المعدَّة في جامعة القدّيس يوسف بعنوان **معالم الوطنيّة في الشعر اللبنانيّ الحديث** لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها التي استغرق عملنا فيها أكثر من إحدى عشرة سنة، بحيث ناقشناها عام ١٩٧٧. ثمّ وافقت دار المشرق على طبعها عام ١٩٧٩ بعنوان **الشعر والوطنيّة في لبنان والبلاد العربيّة**. وقد عالج كتابنا هذا الآداب العربيّة في عصر النهضة، والمؤثِّرات الغربيّة فيها، ومختلف تيّاراتها ومظاهرها الأدبيّة والفكريّة من مطلع القرن التاسع عشر حتّى عام ١٩٣٩.

وخلال تدريسنا الجامعيّ للآداب النهضويّة، الذي رافق عملنا في إعداد الأطروحة، اهتممنا بجذور النهضة العربيّة في لبنان وببعض أعلامها في العصور العبّاسيّة، فأصدرنا عام ١٩٨٤ في منشورات الجامعة اللبنانية كتاباً بعنوان **مظاهر الحضارة اللبنانيّة زمن الدولة العبّاسيّة**.

أمّا الحقبة الواقعة بين هاتين المرحلتين اللتين يتناولهما كتابانا المذكوران فلم نعبأ فيها كثيراً بملاحقة الآداب العربيّة وأخبارها، لانطباعٍ كَوّنّاه من أساتذتنا ومطالعاتنا المحدودة، آنذاك، بأنّها مراحل لا تستحقّ كبيرَ عناء، لِما اتّسمت به من انحطاطٍ وتخلُّفٍ وجمود[1]. يقول جرجي زيدان، مثلاً: «أمّا

(١) استثنينا العهد الأيّوبي (١١٧٤ ـ ١٢٥٠) إذْ لم تشمله صفة الانحطاط عند جمهور الدارسين لأنّه =

الآدابِ العربيّة، على الأجمال، فأصبحت في أحطّ أدوارها، وندر نبوغ العلماء والمفكِّرين أو المستنبطين فيها»[1].

وختم الأب لويس شيخو كتابه «شعراء النصرانيّة بعد الإسلام» بقوله: «ينال هذا الكتاب من التاريخ الحقبة المشؤومة التي خيّم فيها الجهل على البلاد الحزينة الناطقة بالضاد بعد انقيادها لزمام المماليك ومَنْ خَلَفَهم من الحكّام الجَوَرَة أرباب السيف الدامي واليَراع المحطَّم، فيقع طرف القارىء فيها وقوعه على قفرٍ خالٍ وليلٍ مظلمٍ حالكٍ لا يُسمع فيه إلّا أنّة المظلوم واستغاثة المضنَى ولا يُرى إلّا لمعة السيف وشهيَّة النار الآكلة. . .»[2].

وعالج الأستاذ بطرس البستاني (١٨٩٨ ـ ١٩٦٩) «عصر الانحطاط» في كتابه «أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث» وحدّده على الشكل التالي: «يبتدىء باستيلاء هولاكو على بغداد، وينتهي بدخول نابوليون الأوّل مصر (١٢٥٨/ ١٧٩٨)»[3]. وحكم عليه حكماً قاطعاً: «عصر يصبغه الهول والذعر والفساد من جميع نواحيه، عصر تقتيل العلماء، وإتلاف الكتب، وتخريب المدارس. . . ولم يمعن المماليك في إرهاق العرب إلّا ليوطِّئوا العقاب للعثمانيّين أبناء جلدتهم. . . واستُعبدت الأفكار، وحُطِّمت الأقلام، وخُنقت حرّيّة الفرد والجماعة، فذلّ العرب وتفرّقت كلمتهم. وكان هذا العصر أسوأ العصور عليهم»[4].

ووافق على كلام بطرس البستاني أخوه كَرَم (١٨٨٨ ـ ١٩٦٦) في مقدّمته لكتاب «المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو» (الجزء الخامس). فبعد أن

= زامن العصر العبّاسيّ الرابع (١٠٥٥ ـ ١٢٥٨)، وقد شجّع الدراسة والعلوم الإنسانيّة ومنها الآداب.

(١) **تاريخ آداب اللغة العربيّة**، ٢/ ٢٨٤.

(٢) الأب لويس شيخو: **شعراء النصرانيّة بعد الإسلام**، ص ٥١١. وربّما كانت هذه الخاتمة للأب المشرف على المطبعة الكاثوليكية التي طبعت الكتاب عام ١٩٢٤ كما يُفهم من آخرها، إلّا أنّ الأب لويس شيخو وافق عليها، بلا شكّ، وقد تُوُفّي عام ١٩٢٧.

(٣) بطرس البستاني: **أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث**، ص ٢٠٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢١٢.

عَنْوَن القسم الثاني من مقدّمته «بالأدب المشرقيّ في الانحطاط»، ووصف العهد «بالعهد الكالح»، قرأنا له: «فانطفأت جذوة القرائح ومات الفنّ، وأرمد الوحي والابتكار، ودبّ الفساد في اللغة الفصحى بانتشار العناصر الأعجميّة، ونشرهم رطانتهم فيها... وهكذا خيّم الانحطاط برَوْقَيه[١] على العربيّة وآدابها، وانزوت الفصحى بنتاجها العبقريّ في بطون الطوامير[٢] المُهْمَلَة، تنتظر أن يقيِّض لها الله تعالى يوماً تنبعث فيه من أكفانها»[٣].

وهذا الجوّ، على علمنا، كان سائداً في مختلف البلاد العربيّة، ولا يزال مخيِّماً عليها، وإن ابتدأت تتخلَّله انفراجات لا تزال تنتظر مَن يتعهّدها ويوسِّعها بمزيد من العناية قراءةً واطّلاعاً وبحثاً.

وكان أنّنا، خلال محاضراتنا النهضويَّة في الجامعة اللبنانيّة، أخذنا نوجِّه نظرنا أكثر فأكثر إلى عهدَي المماليك والعثمانيّين مُسْتَوفين دراستنا للآداب النهضويّة، فلمسنا إنتاجاً ضخماً في مختلف ميادين العلوم الإنسانيّة، ورأينا أعلاماً نذروا أنفسهم للعلم والمعرفة، وحُفظت عنهم المخطوطات المستفيضة المتعدِّدة الأجزاء، والموسوعات الوافية، والأدب الجمّ شعراً ونثراً، إلاّ ما كان يكتنف تلك الآونة من رداءة الحكم والسياسة، ما لا يمنع الإنتاج وإنْ عرقله. بل ربّما أُورثت التجارب والمحن قرائح الأدباء والعلماء ورفدت مواهبهم، كما رأينا، مثلاً، في العصور العبّاسيّة حين ضعف الحكم المركزيّ في بغداد، وتعدّدت الولايات والممالك الخارجة عن سلطة الخليفة. وكثيراً ما أصابت تلك الآونة أحكامٌ تتعدّى زمانها ومعاييرها، منطلقةً إليها من جعبةٍ نقديّةٍ عصريّةٍ حديثة.

وشجّعنا على المضيّ في سبيلنا آراءٌ متفرِّقة وكتب ابتدأت تنظر إلى عهدَي المماليك والعثمانيّين نظرة جديدة، وتزفّ منها آثاراً تطيب لها النفوس. وقد اعتاد المؤرّخون الكبار، في بحثهم عن تاريخ بلادهم، أن يتوقّفوا عند

---

(١) يُقال ضرب رَوْقَه بمنزل كذا: نزل به وضرب خيمته.

(٢) جمع طامُور وطُومار: الصحيفة.

(٣) المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو، ٥/ ٢٣٠.

الانجازات العظيمة والآثار المشرِّفة مُهملين ما يكتنفها من بشاعة وتقصير. وإنّما غايتنا وغاية الفنون الجميلة عموماً البحث عن مظاهر الجمال والروعة، وإتحاف الناس بها، مُخرجين اللآلىء البرّاقة من أصدافها.

وحَصَرْنا في لبنان دراستنا الموسومة **بتباشير النهضة الأدبيّة** لأنّنا أبناء البلد، نُلمُّ بتاريخ وطننا ومكتنِفاته إلماماً نرتاح إليه، وهو الذي كان، على ضِيْقِ مساحته، رائداً كبيراً في بثِّ أشعّة الانبعاث والتطوّر إلى سائر البلاد العربيّة. ولا يعني هذا أنّنا نتنكّر لِما أسهمت به هذه البلاد، كما لا ننكر التفاعل بينها وبين بلدنا. ولا سيَّما أنّ لبنان مشهور بانفتاحه على الشرق والغرب. فتطرّقنا، أحياناً، بما يسمح به طرحنا، إلى كبار أعلامها وساطع منائرها. ثمّ إنَّ تحديد الطرح في بلدٍ عربيّ واحد يساعد على عمقه وشموله، ويقدّم نموذجاً حيًّا عن سائر البلاد العربيّة، ذلك أنّ تطوُّر اللغة والآداب فيها، وإن اختلفت وتيرته وسرعته، لم يختلف جوهره ومبادئه العامة؛ فاللغة واحدة والمآل واحد. ومع زيادة الاتّصال اشتدّت اللحمة بحيث وصلت، مع الزمن، إلى جِسْمٍ متناسقٍ متناغم، إلى ما تفرضه الفوارق القُطريّة.

أمّا المصادر والمراجع التي اعتمدناها، فسوف يرد أهمّها في المبحث الأوّل من الكتاب. وقد اعتنينا اعتناءً خاصاً بالتوثيق والدعم لكي نعزّز بحثنا بحوافز الاستمراريّة والثبات والإجماع.

وأمّا المنهج الذي اتبعناه، فهو تأريخيّ انتقائي استقرائيّ ينطلق متسلسلاً من الآثار نفسها، يستنتج خصائصها ويبرزها، مع التوكُّؤ الوافر على المنهج الاجتماعيّ، ذلك أنّ المجتمع هو الأرض التي نبتت فيها الأغراس المعتمدَة.

وما كتابنا هذا سوى محاولة وإسهام في موضوع نرجو أن يكثر تداوله، فيستوفي حقّه ويشيع بين الناس، مستبدلاً بالنظرة السلفيّة إلى عهدَي المماليك والعثمانيّين نظرةً جديدةً أكثرَ صحّةً وأشدَّ اعتدالاً.

وليم الخازن

الفصل الأوّل

مبدأ النّهضة

ليس للنهضة العربيّة الحديثة حدود واضحة متّفق عليها، بل هي تيّار متّصل، بعيد الجذور، كثير الروافد، يختلف اتساعاً وتأثيراً وأهميّة في البلدان التي ورثت حضارة العرب، وانتظمتها لغة الضاد، وشكّلت العالم العَرَبيّ الحديث. والنهضة الأدبيّة مرتبطة بالنهضة الاجتماعية والثقافيّة، وبمدى انفتاح البيئة التي تعيش فيها على سائر البيئات قريبةً وبعيدة. فالنهضة الأدبيّة وجه من وجوه الحضارة العربيّة وعنصر أساسيّ من عناصرها، تفاعلت معها وكانت رافداً من روافدها المتميّزة.

لم تنقطع الثقافةِ العربيّة انقطاعاً تاماً في أيّ عهد من العهود، بل ظلّت شمسها تتخلّل الغيوم المتلبّدة لتسطع في بؤر معيّنة ومؤسّسات مشعّة في العالم العربيّ، مثل جبل عامل، وجبل لبنان ومدنه، والمدن الشاميّة والعراقيّة والمصريّة، وكالأزهر في مصر، والنجف الأشرف في العراق، وجامعتي القيروان والزيتونة في تونس.

وأُنشئت المدرسة المارونيّة برومية في القرن السادس عشر (١٥٨٤)، وعمّ نفعها الشرق والغرب. كما نشطت معاهد الاستشراق[1] في كثير من البلدان الأوروبيّة لغاياتٍ سياسيّة واقتصاديّة وثقافيّة، فعانى منها المشرق سياسيًّا

(١) للتبسُّط في الاستشراق، راجع كتاب نجيب العقيقي: **المستشرقون في ثلاثة مجلّدات**، طبعة ثالثة، مصر ١٩٦٤؛ وفؤاد أفرام البستاني: **دائرة المعارف**، ١٢/١١ - ٥٠.

راقتصاديًّا، وأفاد ثقافيًّا وحضاريًّا. وبذلك، بدا لنا أن نقول: إنّ الرأي المتناقل يردّده الخلف عن السلف بأنّ عصر الانبعاث، أو اليقظة العربيّة، أو النهضة الحديثة، قامت مع حملة بونابرت على مصر (١٧٩٨) هو رأي يشوبه الكثير من التّسرّع والإجحاف بحقّ القرون والمراحل السابقة لهذه الحملة، خصوصاً في لبنان.

نقول هذا غير غافلين عن تأثير جوّ السلطنة العثمانيّة السلبيّ، وحكمها المطلق المدَّعَى من الله، وظلمها وكبتها الحريّات[١]، واقتصار ثقافتها على الجنديّة وأنظمة الحكم. واللغة التركيّة تطعّمت بالعربيّة والفارسيّة لتقصيرها وصعوبة إتْقانها بحيث توقّفت موهبة الأتراك، كما يقول البارون دو طوط[٢] «في حدود القراءة والكتابة لصعوبة لغتهم ولطول الوقت اللازم لاستيعابها»[٣].

أوّلاً: واحات ثقافيّة في ما عُرف بعصر الانحطاط

حيث إنّ التفاعل بين لبنان وسائر البلدان العربيّة قام منذ أقدم العصور، فلا غروَ من أن تتأثّر نهضته بنهضة العالم العربيّ وتتفاعل معها. ولا بدّ، إذاً، من نظرة خارج لبنان نركّز فيها الإطار العام للآداب العربيّة في مرحلة دراستنا.

إنّ العصر الذي وُسم بالانحطاط عرف، بخاصةٍ في أوّله، شعراء يستحقّون الذكر كالتَلَعْفَري (١١٩٨ - ١٢٧٧) والشاب الظريف

(١) من أسوأ ما عُهد عن بعض سلاطين العثمانيّين تحريمهم الطباعة. فعندما وصل خبر الاختراع الجديد إلى الشرق، أصدر السلطان با يزيد الثاني مرسوماً بتاريخ ١٤٨٥ ينهَى فيه رعاياه عن اتخاذ المطبوعات. وتبعه ابنه سليم الأوّل الذي جدّد أمر أبيه سنة ١٥١٥ (الأب لويس شيخو: **تاريخ فن الطباعة في المشرق**، مجلّة المشرق ١٩٠٠، ٣/١٧٤ - ١٧٥).

(٢) François Baron de Tott: جنرال فرنسي (١٧٣٣ - ١٧٩٣) ابن شريف مجريّ مهجّر. خدم السفير الفرنسيّ فرجين Vergennes في القسطنطينيّة مترجماً (١٧٥٧ - ١٧٦٣). عُيّن قنصلاً في القِرم Crimée لدى التتر الذين حرّضهم على روسية (١٧٦٧). أعاد تنظيم الجيش التركي. أمّن الدفاع عن مضيق الدردنيل يوم هاجمه أورلوف (١٧٧٠)، وحصّنه (١٧٧٣ - ١٧٧٥). كُلّف تفتيش أسكلة الشرق (١٧٧٦). مارشال (١٧٨١). حاكم دُوِي Douai المدينة الصناعيّة الفرنسيّة (١٧٥٧). هاجر إلى المجر (١٧٩٠). تشكّل مذكّراته عن الترك والتتر (أربعة أجزاء، ١٧٨٤) مصدراً مهمًّا لتاريخ تركية (موسوعة لاروس الكبيرة، باريس ١٩٦٤، ١٠/٣٩٥).

(٣) F. Baron de Tott: *Mémoires du Baron de Tott sur les Turcs et les Tartares*, p. 165.

(١٢٦٣ - ١٢٨٩) والبُوصيري (١٢١٢ - ١٢٩٦) وابن الوردي (١٢٨٩ - ١٣٤٨) وصفيّ الدين الحِلّي (١٢٧٨ - ١٣٤٩) وابن نُباتة المصريّ (١٢٨٧ - ١٣٦٦). وعرف هذا العصر منشئين ومؤلِّفين كباراً في اللغة والآداب والتاريخ والعلوم، كابن مالك (١٢٠٣ - ١٢٧٤) صاحب «الألفيّة»، وابن هشام (١٣٠٩ - ١٣٦٠) صاحب «قَطْر النَدَى وبلّ الصَّدَى» و «مُغني اللبيب عن كتب الأعاريب» وغيرهما، وابن آجرُّوم[1] (... - ١٣٢٣) الذي غلب عليه اسم «آجُرُّوميَّته»، وابن منظور (١٢٣٢ - ١٣١١) صاحب «لسان العرب»، والفيروزابادي (١٣٢٩ - ١٤١٥) وله «القاموس المحيط»، وابن خلّكان (١٢١١ - ١٢٨٢) صاحب «وفيات الأعيان»، والنُوَيري (١٢٧٨ - ١٣٣٢) وكتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب»، وابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) صاحب «المقدّمة» و «التاريخ» المشهورين، والدَّميري (١٣٤١ - ١٤٠٥) صاحب كتاب «حياة الحيوان الكبرى»، والقلقشندي (١٣٥٥ - ١٤١٨) صاحب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، وتقيّ الدين المقريزي (١٣٦٤ - ١٤٤١) صاحب «الخطط» في تاريخ مصر وأحوالها، والإبشيهي (١٣٨٨ - ١٤٤٦) صاحب «المستطرَف في كلّ فنّ مستظرَف»، وحاجي خليفة (١٦٠٨ - ١٦٥٧) وله «كشف الظنون» وهو معجم لأسماء المصنّفات العربيّة مرتّبةً على الألفبائيّة.

وما ذكرناه، هنا، غَيض من فَيض يدلّ على أنّ عصر الانحطاط أو الانحدار لا يزال ينتظر من يُعطيه حقّه ويضعه في المرتبة التي تليق به ضمن التراث العربيّ، ومن خلال المعايير والأوضاع والأنماط السائدة في عهوده المختلفة: «فكلُّ دعوة، مهما كان ابتداؤها أو غرضها الأخير عاماً، شاملاً لجميع النوع الإنسانيّ، فإنّ نظرتها إلى الحياة والكون يجب أن تكون منطبقةً على خصائص البيئة التي تنشأ فيها وعلى استعدادها الروحيّ، فلا يمكنها أن تشذّ عن استعداد بيئتها إلاّ إذا خرجت منها أو وُجّهت إلى غيرها المخالف لها»[2] ومهما خرج الأدب على البيئة يظلّ لها أثر كبير فيه. والعربيّ آنذاك

(١) آجرُّوم كلمة بربريّة تعني الفقير الصوفيّ.

(٢) باسل البرازي: نحو شموليّة سعاده، ١/ ٤١.

ممزّق بين حليفين «ممثّل الدين ومالك الأرض»، فانطبع «بحبّ المآسي والعِشق المرضيّ للحزن، بالخوف من الفرح، بنوع من الميل لتحطيم الذات، بإحساس الذنب، بتقييم سفلويّ للذات، وبقبول تلذُّذيّ للظلم والرضى بالألم، مع تمرّد قليل وفورات بسيطة وعابرة. . فظهرت القدسيّة التاريخيّة للموت والحزن. جذورها في الظلم، في الإحساس به، في الشعور بالمصيبة الجماعيّة (دينيًّا واجتماعيًّا). لقد غرسوا الكآبة ورضعوها، خلقوها ثمّ عبدوها في البكاء والعويل»[1].

وممّن أعادوا النظر في هذا العصر، وقرأوا تراثه قراءةً شخصيّةً جديدة الدكتور بكري شيخ أمين الذي كان له فيه آراء لافتة نذكر منها قوله: «الظاهرة البارزة الأولى في تاريخ الأدب العربيّ عموماً، والعصرين المملوكيّ والعثمانيّ خصوصاً، أنّ موكب الشعر لم يتوقّف أو ينقطع على الرغم من تغيُّر الأوضاع السياسيّة، وتبدّل الأحوال الاجتماعيّة، وتبايُن الجواء الفكريّة والثقافيّة بين مختلف الأمصار والعصور. . . ولو فتحنا كتاباً تعرّض لذكر بعض شعراء تلك الأزمنة «كخريدة القصر» للعماد الأصفهاني، أو «خزانة الأدب» لابن حجّة الحمويّ، أو «خلاصة الأثر» للمحبّي، أو «سلك الدُّرر» لمحمد المُرادي، ونظرنا في ما احتوى عليه كلّ منها من أسماء الشعراء، لانتابنا العجب لأنّ كلًّا منها يطالعنا بأسماء لا تكاد تُحصى. . . إنّ معظم ما خلّف شعراء العصر السلجوقيّ والفاطميّ والأيّوبيّ والعثمانيّ لا يزال مخطوطاً، وأكثر هذه المخطوطات متربّعة على رفوف مكتبات الغرب أو الشرق، وبعضها ضائع أو مفقود. . . ولا نبالغ إذا قلنا إنّ المؤلَّفات التي صدرت في العصر المملوكيّ بلغت عشرات الآلاف، وحسبنا دليلاً أن بعض العلماء عُرف عنه أنّه ألّف مئات من الكتب كالسيوطي وابن تيميّة»[2].

ونزيد على لفتة الدكتور بكري شيخ أمين المعبّرة موضحين ومكمِّلين، فنذكر أنّ تمام عنوان كتاب محمد أمين بن فضل الله المُحبّي الدمشقيّ

---

(١) علي زيعور: التحليل النفسيّ والإناسيّ للذات العربيّة، ٣/٤٨.

(٢) بكري شيخ أمين: مطالعات في الشعر المملوكيّ والعثمانيّ، ص٥٨، ٧٩، ٨٠، ٨٢.

(١٦٥١ ـ ١٦٩٩) هو «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، وهو سِفر كبير في أربعة أجزاء. وتمام عنوان كتاب مفتي دمشق محمد خليل المرادي (١٧٦٠ ـ ١٧٩١) هو «سلك الدُّرر في أعيان القرن الثاني عشر» وهو في أربعة أجزاء أيضاً. ومن المصنَّفات الواسعة المهمّة التي لم يذكرها شيخ أمين في شواهده كتاب شمس الدين محمّد بن عبد الرحمن السَّخاوي المصري (١٤٢٧ ـ ١٤٩٧) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» وهو في عشرة أجزاء، وكتابان لنجم الدين محمّد الغزّي الدمشقي (ت ١٦٥١) هما «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» في ثلاثة أجزاء، و«لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر».

وفي الدراسات الحديثة تحتلّ أطروحة محمد عيسى قنديل «الشعر العربيّ في العصر المملوكيّ الثاني» مكاناً متميّزاً من حيث معالجتها المتكاملة ونظرتها الشاملة لأحوال العصر وشعره.

ويعزّز هذا العصر أن قد تكامل فيه من الأدب الشعبيّ «خيال الظل»[١] سابق السينما، و«سيرة بني هلال»، و«سيرة عنتر» التي تكاملت في مصر منذ القرن الرابع عشر تقريباً[٢]، و«ألف ليلة وليلة» في مصر والعراق والشام خصوصاً. وما أصلها الذي ذكره النديم في فهرسته «هزار أفسانة» (ألف خرافة) سوى نزر يسير منها. وقد اهتمّ بها الغرب قبل الشرق، وترجمها إلى لغاته، واستوحى منها الأخيلة المشرقيّة والموسيقى الرائعة[٣].

ومن الدراسات الرصينة الوافية في البلاد العربيّة، والتي نهضت حديثاً لتعيد إلى تلك الآونة مكانتها الحقيقيّة في تاريخ الآداب العربيّة، الكتاب المعبِّر في جزأيه للدكتور محمد زغلول سلام بعنوان: «الأدب في العصر المملوكي»،

---

(١) عالج المحامي فاروق سعد «خيال الظلّ العربيّ» في أطروحة مهمّة بجامعة القدّيس يوسف، ١٩٨٣؛ وفي «ملحق النهار»، العدد ٢١، السبت أوّل آب ١٩٩٢، ص ١٠ ـ ١٣. وسمّاه العرب أيضاً: خيال الإزار، خيال الستارة، طيف الخيال، مسرح العرائس.

(٢) الموسوعة العربيّة الميسّرة، ص ١٠٥٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

إلى جانب كتاب بكري شيخ أمين حول الشعر في العهدين المملوكيّ والعثماني [1]. كما تجدر إضافة بعض المصادر القديمة المطوَّلة مثل «مطالع البدور في منازل السرور» لعلي بن عبد الله البهائي الغُزُولي الدمشقي (ت ١٤١٢)، و«بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس المصريّ (١٤٤٨ - ١٥٢٤).

ولم يَرَ المستشرقون والنّقاد المتطوّرون غضاضةً أو حطًّا من قيمة الآثار الشعبيّة في شذوذها عن قواعد اللغة العربيّة الفصيحة. والنقد اللاحق لعهدي المماليك والعثمانيّين، وخصوصاً الحديث منه، أصدر أحكامه القاطعة على هذين العهدين من وراء كوابح دينيّة وقوميّة عربيّة ملتزمة وموجَّهة، تحذّر من استعمال اللغة العاميّة، وتَعُـدُّ كلّ تعبير عاميّ أو قريب منه سطحيًّا سخيفاً مبتذلاً شاذاً مارقاً[2].

وقامت، اليومَ، نظرات حديثة مستقبليّة، بعيدة عن كل خلفيّة دينيّة أو سياسيّة، بل يمكن اعتبارها مثاليّة، ترى مستقبل الآداب العربيّة بألسنة الشعوب المختلفة الناطقة، عفويًّا، بلغة الحياة اليوميّة. ومن أهل هذه الآراء عندنا الشاعران الشهيران سعيد عقل (١٩١٢ - ...)، ويوسف الخال (١٩١٧ - ١٩٨٧)، والناقد المعروف عصام محفوظ (١٩٣٩ - ...) الذي يستهجن استعمال الفصحى في الحوار القصصيّ أو المسرحيّ، ويعتبره «خيانة للواقع وللفنّ المسرحيّ العربيّ». وقد طالب «بالتضحية باللغة الفصحى شهيدة المسرح». كما أنّ لمحفوظ شعراً عاميًّا إلى جانب الكثير من الفصيح[3]. وهل يقلّل من قيمة الأدب العاميّ، وخصوصاً الشعر الشعبيّ اللبنانيّ، كونه باللغة المحكيّة؟ ألا يشكّل أتباعه وقادروه الجمهور الأوسع؟

ويبقى علينا تمييز يفرض نفسه بين عهدَي المماليك والعثمانيّين، وهو يرجّح كفّة المماليك أدبيًّا وفنيًّا وعلميًّا لأسباب أهمّها اعتماد المماليك على

---

(١) عنوان كتابه «مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني»، كمامرّ بنا.
(٢) مثلاً كتاب قضايا ومشكلات لغويّة، تأليف أحمد عبد الغفور عَطّار، مكّة المكرّمة ١٩٩٠.
(٣) عصام الحوراني: مسرد لأدباء من قضاءي مرجعيون وحاصبيّا، ص ٥٩١ - ٦٠٨.

العنصر العربيّ خصوصاً، لتفرّع أصولهم الغربية، وقيامهم على أرض عربيّة؛ واعتماد العثمانيّين اللغة التركيّة، واختلاف مواطنهم. وقد التزم هذا التمييز حتّى الذين تبنّوا مصطلح «الانحطاط» لتلك العهود كالأب لويس شيخو اليسوعي[١]، والأستاذ بطرس البستاني[٢]، وقبلهما جرجي زيدان[٣].

وبعد كل التآليف والآراء التي ذكرنا، والتي تجنّبتْ تسمية عهدَي المماليك والعثمانيّين بأسماء تغلق عليهما كلّ باب يتسرّب منه الضوء، إضافة إلى مؤلَّفات وآراء كثيرة أغفلناها، ككتاب محمود رزق سليم «عصر سلاطين المماليك» المطبوع بمصر في ثمانية أجزاء كبيرة، والمحتوي على مختارات وتعاليق وشروح، وكتابَي الدكتورَين محمد كامل حسين، وعبد اللطيف حمزة[٤]؛ بعد كلّ هذا، ألا يستحقّ ذاك العهد الطويل أن يتلبّس بتسمية جديدة فيغدو «عهد المماليك والعثمانيّين»، لا عهد الانحطاط، والانحدار، والظلمات، وما إليها؟

ثانياً: جبل لبنان والسواحل والمدن

١ ـ الجبل

تمتّع جبل لبنان بحريّةٍ ما عرفتها سواحله: «فعدا صعوبة السيطرة على الجبليّين عموماً، فإنّ الاستعباد التركيّ الذي انتظم الساحل اللبنانيّ بأكمله توقّف عند أوّل صخرة وأوّل مفازة من مفاوز الجبل الذي حافظ أهله على

---

(١) كتب الأب شيخو: «منذ استولت تركية على البلاد الناطقة بالضاد في العشر الثاني من القرن السادس عشر، أصيبت الآداب العربيّة بضربة أليمة» (شعراء النصرانيّة بعد الإسلام، ٤/٤٥٥).

(٢) أدباء العرب، ٣/٢١٠ ـ ٢١١. وراجع أيضاً محمد عيسى قنديل: الشعر العربيّ في العصر المملوكي الثاني، ص ٢ وما بعدها.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربيّة، ٣/٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٤) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، ١/٦.

استقلالهم وتقاليدهم، وعلى ذكرى أميرهم العظيم فخر الدين»[1]. وحافظ المسيحيّون وجيرانهم الدروز فيه على الاتّحاد التام، والعلائق الاجتماعيّة الممتازة[2] .

وقبل إنشاء المدرسة المارونيّة بقرون، كان اللبنانيّ يختلج شعوراً وافتتاناً بما حباه الله من طيب الجوّ، وجمال الطبيعة، وتوفُّز السليقة. قال صلاح لبكي (١٩٠٦ ـ ١٩٥٥) في كتابه «لبنان الشاعر»: «إنّ لفي طبيعة لبنان من التوازن والاتّساق والجمال ما يفيض بعضه على النفوس ويحرّك القلوب. لقد قام منذ أبعد العصور بين اللبنانيّين وطبيعة بلادهم صداقة حميمة. . . هي تغدق وتشعّ وتلوّن، وهم يبثّون ويفزعون إليها ويحنّون ويعبدون. فترتفع القلوب أنغاماً وتنطلق العقول استنطاقاً عن المكنونات والبواعث والعلل»[3].

وفي شمال لبنان حيث ظلّت السريانيّة مسيطرة حتى القرن السابع عشر كان تأثّر اللبنانيّ المارونيّ حاسماً بالأناشيد والمدائح السريانيّة القريبة من النفوس بأنغامها الموقّعة، والتي كانت تُنشد في الكنائس. وأبرزها الأفراميّات ذات السبعة المقاطع، واليعقوبيّات ذات الاثني عشر مقطعاً. وإن تكن هذه الأنغام غريبة عن بحور الخليل ومرتبطة بالتراث الآرامي، فإنّ النظم عليها جاء أحياناً باللغة العربيّة المحكيّة، آنذاك، في جبل لبنان[4].

وفي ظنّنا أن الدكتور خليل حاوي (١٩١٩ ـ ١٩٨٢) حين أكّد بارتياح أنّ محاولات النصارى اللبنانيّين في التعبير الأدبيّ العربيّ «لم يتمّ قبل القرن الخامس عشر»[5]، كان في يقينه إنتاج تلاميذ المدرسة المارونية (١٥٨٤)،

---

(١) De Tott: Mémoires, P. 22.

(٢) ركّز توفيق توما في كتابه المهمّ **الريفيون والمؤسّسات الإقطاعيّة عند الدروز والموارنة في لبنان من القرن السابع عشر حتى ١٩١٤**، الصادر في منشورات الجامعة اللبنانيّة بالفرنسيّة عام ١٩٨٦ (١/٤٧ ـ ٥٦)، على العلاقات المتميّزة بين الدروز والموارنة، وعلى مؤسّسي الوحدة الدرزيّة ـ المارونيّة. وهو بحث جدير بالمراجعة.

(٣) صلاح لبكي: **لبنان الشاعر**، المجموعة النثريّة، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٤) بطرس الجميل: **زجليات جبرائيل إبن القلاعي**، ص ٦٠ ـ ٦٢.

(٥) خليل حاوي: **جبران خليل جبران**، ص ٣٠.

وجبرائيل إبن القلاعي (ت ١٥١٦) في القرن السادس عشر وليس الخامس عشر. قال جبران مسعود: «النهضة هي كذلك بنت لبنان، نهلت من روحه وترعرعت بهدية، واطمأنّت على ساعده، فكان لها نِعم الأب، حضنها يوم بسمت لطلعتها دنياه، منذ القرن السادس عشر، وسهر عليها حتى استقام عودها، واستمرّ يتعهّد سعيها في أرضه حيناً وفي دُنى الاغتراب حيناً»[١]. ويتحدّث مارون عبّود عن تلقّف اللبنانيّ للفصحى وقابليّته للتمرّس بها سليمةً قبل سائر الأقطار العربيّة، فيقول: «قابلتُ لهجة لبنان بلهجات الأقطار الأخرى فوجدت لغتنا العاميّة أقرب إلى الفصحى من جميعها»[٢].

ومن أبرز الممثّلين للشعر اللبنانيّ وأدبه، آنذاك، **الأمير سيف الدين يحيى التنوخي**[٣] «الشاعر الذي تخطّى عصره»[٤]. والتنوخيّون الدروز، عموماً، كانوا من السبّاقين إلى النهضة الفكريّة، وإلى الشعر الروحيّ الذي يلامس التصوّف ويمتزج به أحياناً. ومذهبهم الدرزيّ، القائم على العقل والروح، يقرب، من جهة، من الصوفيّة فيطّرد في جوّها؛ وتقف التقيّة حائلاً بينه وبين الانتشار في سائر الملل والطوائف، من جهة أخرى. يشهد على ذلك ما رحنا نطّلع عليه من دراسات في هذا الموضوع لأمثال عجاج نويهض[٥]، وعارف أبو شقرا[٦]، وفؤاد أبو زكي، وقبلهم تاريخ ابن سباط... كتب أبو زكي: «في خضمّ الظلام الفكري المحلولك، شعّ نور في لبنان الوسيط في إمارة الغرب التنوخيّة التي بقي الشعر مزدهراً فيها طيلة مدّة حكم أمرائها»[٧].

---

(١) جبران مسعود: **لبنان والنهضة العربيّة الحديثة**، ص ١١.

(٢) مارون عبّود: صقر لبنان، ص ٦٦.

(٣) وُلد في عَبَيه عام ١٣٨٧، وتوفّي عام ١٤٥٩. تجد عن حياته وأعماله وزهده وتقواه في **تاريخ** الدروز لابن سباط، ص ٢١ ـ ٢٣؛ وفي التنوخيُّون لنديم نايف حمزة، ص ١٩٤ ـ ١٩٨؛ وفي ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف لفؤاد أبو زكي، ص ٣٧ ـ ٤٦.

(٤) المرجع الأخير، ص ٤٦.

(٥) في كتابه **التنوخي والشيخ الفاضل**، مطابع دار الصحافة، بيروت ١٩٦٦.

(٦) في كتابه **ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف**، دار الغد، بيروت، طبعة أولى ١٩٥٧.

(٧) فؤاد أبو زكي: **ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف**، ص ٤٥.

ونقل الكاتب نفسه عن ابن سباط قوله عن الأمير سيف الدين يحيى التنوخي إنّه «فات الأوّلين والأخيرين في شعره»(١).

وللتمثيل على شعره نذكر شاهدين: الأوّل من المرحلة الأولى التي انطبعت باللهو والغزل. والثاني من مرحلة الارتداد الى الدين والروح والمسلك القويم. جاء في مطلع قصيدة «باح الفؤاد» الغزليّة المؤلّفة من ثمانية وستين بيتاً:

بـاحَ الـفؤادُ بِسِـرٍّ غيـرِ مُنْكَـتِـمِ	ونَـمَّ دَمْعِي بمـا عـنـدِي مِنَ الألـمِ
وَرُحْتُ أشكـو لمنْ أهـوَى فعـارَضَني	وقـال إنّـكَ في الـدّعْـوَى لَمُتَّهِمِي
فقلتُ لَـو أنّني قـد كُنْتُ مُـدَّعِيـاً	مـا فاضتِ العَيْنُ في يـوم النَّوَى بِـدَمِ
ولا تَـمـايَلْتُ مِـنْ ذِكـراكُـمُ طَـرَبـاً	كمـا تميـلُ غصـونُ البانِ بـالنَّسَمِ
ولا قَـضَيْتُ بِـكَ الأيّـامَ فـي أَمَـلٍ	مِنَ اللِّقـاءِ ومَحْصُـولي على عَـدَمِ
ولا تـنفَّسْتُ بـالـصُّعْـداءِ مِـن كَبِـدٍ	حَـرَّى ولا زال منّي الجسمُ بِـالسَّقَمَ
ولا قَضَيْتُ اللَّيـالي فيـكَ مـفتكـراً	بمُقْلَةٍ كُحِّلَتْ بـالـدَّمْـعِ لَمْ تَنم (٢)

ومن النهج الروحي قصيدة «الزهد» التي يتحدّث فيها عن مَجرى حياته بين الجهل والعقل، وقوامها واحد وخمسون بيتاً:

بُلُوغُ مَـدَى الغـايـاتِ بـالـطَّلَبِ الجِدِّ	عَسيـرٌ مع العمرِ القصيرِ الى المَجْـدِ
وإن يـتـوانَ طـالـبُ عَـنْ مـرامِـهِ	يكـونُ جـديـراً بـالتَـردّي عن القَصْـدِ
وَهَـلْ يَبْلُغُ الساعي المـرامَ وكَمْ عسى	يُجـاوزُ بـالسَّيْـرِ الهُـوَينـا مـع البُعْـدِ
ومِـنْ دونِـهِ الأقـدارُ جـوّالـةٌ وقـدْ	جَـرَتْ حَلْبَةُ الأيّـامِ بـالحَثِّ والكـدِّ
وإنْ فـات جَـولاتِ المقـاديـرِ لم يُفِـدْ	تـصـرُّمُ أيّـامٍ تَـوَلَّـتْ بـلا رَدِّ

(١) المرجع نفسه، ص ٤٦ عن ابن سباط: **تاريخ الدروز**، ص ٢٢.

ويطيب لنا أن نلاحظ أنّنا في دراستنا كلّاً من أدباء الطوائف اللبنانيّة المختلفة اعتمدنا، خصوصاً، المراجع العائدة لأبناء طوائفهم. ذلك أنّنا نعتقد مخلصين أنّ خير من يدرس شخصيّات طائفة معيّنة وآراءها ومعتقداتها هم أبناؤها أنفسهم لأنّهم يحيون جوّها وأعرافها وعقائدها. ونتجنّب بذلك تهمة التحيّز الطائفيّ الذميم.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥١.

عـزائـمُـهُ بـالـنَّـقْص راجعـةٌ بـهِ وأيّـامُـهُ بـالـعمـرِ رائـحـةٌ تَغْـدِي
كـأنَّ لـيـالـيـنـا وأيـامـنـا غَـدَتْ تسـوقُ بنا سَـوقَ المُضَمَّـرةِ الجُـرْدِ
لَقَـدْ فَـازَ مَنْ أَلْجَـا إلى الـلّهِ أَمْـرَهُ وأَقْبَلَ نحو الحقِّ في الصَّدْرِ والوِرْدِ[1]

إنّ المتمعّن في شعر الأمير سيف الدين التنوخي يرى فيه الجوّ العام المهيمن على المذهب الدرزيّ وأتباعه آنذاك، ومنه التقشُّف والتضرُّع والابتهال والصبر وجهاد النفس والقضاء والقدر والحكمة. وأمّا من ناحية البِنية الشعرية فشعره سهل واضح، سليم اللغة والأسلوب إجمالاً «يُذكِّر بشعر النهضة العربيّة»[2]، إلاَّ أنّه قد يلامس بعفويّته وضروراته الشعريّة الأخطاء الشائعة، كاستعماله «مفتكراً» في البيت السابع من قصيدته «باح الفؤاد». كما لا يخلو شعره من الأخطاء النحويّة، إذ لم يجزم جواب الشرط «يكون» في البيت الثاني من قصيدة «الزهد»؛ واستعمل «تغدي» بدل «تغدو» في البيت السادس من القصيدة نفسها. وإنْ أجاز لنفسه ذلك، فهو غير مقبول عند أهل العَروض وجمهور اللغويّين.

وقد يكون مفيداً ذكرُ شاعرٍ تنوخيٍّ نبيهٍ آخر تُوفّي بعد الأمير سيف الدين يحيى التنوخي بقليل، وهو الشاعر **شمس الدين بن الصايغ** (ت ١٤٧٢) الذي قال يرثي الأمير سيف الدين عبد الخالق الثاني (١٤٤٨ ـ ١٤٦٩) في مطلع قصيدة طويلة:

قِفْ بـالـدِّيـارِ وحَيِّـيْهـا ونـادِيْـهـا وانْـظُرْ إلى رَبْعِها العـالي ونـادِيها
أمّـا المعـالي فقـد دُكَّتْ مبـانيهـا مِنْ بَعْـدِ ما كـان سيفُ الـدينِ بـانيها
يـا عبدَ خـالقنا قـد كُنْتَ راعيهـا فَبَعْـدَكَ اليـومَ مَنْ أَضْحَى يُـراعيهـا
خيـرُ العُلوم صَغيـرُ السّنِّ حـاويهـا والكُتْبُ مِنْهـاجَها قـاري وحـاويها[3]

---

(١) فؤاد أبو زكي: **ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف**، ص ٦٧.
(٢) المرجع نفسه، ص ٤٦.
(٣) ابن سباط: **تاريخ الدروز**، ص ٦٧.

ولا يخفى ما في إيقاع هذا الشعر المنغَّم المنساب من مجاراة وصلاحية لِما عُهد في بني معروف من ندب في مسيرة جماعيّة للرجال يوم الدفن، خصوصاً إن يكن الميت شاباً أو صاحب عزّ وجاه.

ولابن الصايغ مراثٍ كثيرة في هذا الأمير الشاب، منها:

هَجَرْتَ الحِمَى فَاغْبَرَّ من بَعْدِك الحِمَى ... وَاصْفَرَّ منه بانُهُ والأَرايِكُ
وأمّا جِنانُ الخُلْدِ فهي تَزَخْرَفَتْ ... لَدَيْكَ وَإشْتاقَتْ لِقاكَ المَلايِكُ
وما كُنْتُ أَهْوَى أَنْ أَراكَ مُفارِقاً ... يَقِلُّ اعتراضيْ مَنْ تَوَلّاك مالِكُ[1]

ومنها أيضاً:

دَعِيني اللَّومَ عاذلتي دَعيني ... فَقَدْ أَصْبَحْتُ ذا قَلْبٍ حَزينِ
أُعَنَّفُ في الأَسَى وأَلامُ فيهِ ... وما لي في مُصابي من مُعينِ
وما نَوْحُ الحمامِ على هُذَيْلٍ[2] ... كَنَوحي في الدَّياجي فاعذُريني
وبي وَجْدٌ كَمِثْلِ نِسا عَلِيٍّ ... مُفَجَّعَةٍ على فَقْدِ الحُسَيْنِ
وما زالت سِهامُ يَدِ الرَّزَايا ... تُصيبُ مَقاتِلي لِدُنُوِّ حَيْني[3]

وشعره، عموماً، يُعَدُّ من الانطلاقات الرائدة، ويمتاز بموسيقاه وسهولته وصدقه وسلامته اللغويّة والعَروضيّة، إلى ما فيه من صناعة لفظيّة ومعنويّة تجاري عصرها.

ومن الذين أثّروا في الحركة الأدبيّة والفكريّة اللبنانيّة في عهد سيف الدين يحيى التنوخي وبعده، الراهب الماروني **جبرائل إبن القلاعي** المولود في لحفد عام ١٤٤٧، والمتوفّى مطراناً على الموارنة في جزيرة قبرس عام ١٥١٦[4].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٦٨.
(٢) اسم رجل.
(٣) المرجع نفسه، ص ٦٨ ـ ٦٩.
(٤) للتوسُّع في حياته راجع: دائرة معارف فؤاد أفرام البستاني، ٣/٤٦٤ ـ ٤٦٦؛ وإسطفان الدويهي: **تاريخ الأزمنة**، ص ٣٩٥.

درس جبرائيل عشرين سنةً في جامعات رومية، وعاد منها عام ١٤٩٣ وقد أتقن ستّة عشر عِلماً، إلى جانب منظوماته الزجليّة التي تعدّت الخمس والعشرين قصيدة من الشعر العاميّ، ومنها ما يربو على خمسة آلاف بيت. ومن خير زجليّاته المدائح، ومن أشهر مدائحه «المديحة على جبل لبنان»، ومطلعها:

كِيْفِ الدُّهُورْ بْتِتْغَيَّرْ ... وفيهِ العُقولْ بْتِتْحَيَّرْ
وْلَوْ ما تُوجَدْ في الأَسْطُرْ ... ما كانْ يخبِرْ عَنْهُ إنسانْ
ولكنِ التواريخْ بْتِخْبِرْنا ... على ما جَرَى بمواطِننا
والذي كانوا قَبْلْ مِنَّا ... سكّانْ في جَبَلْ لُبْنانْ[1]

قياساً على الأوزان العربيّة، تبدو هذه المدحيّة غير موزونة. أمّا إذا قسناها على أنغام الأفراميّات السريانيّة فتظهر تامة الوزن والقافية، بهيجةَ الإيقاع.

وكان لإبن القلاعي تلاميذ، منهم يوحنّا الذي رافقه إلى قبرس، ثم غرق في البحر وهو في طريقه إلى القدس الشريف، فصنّف إبن القلاعي مرثاة يعدّد فيها فضائله وعلومه ويمدح قداسته[2]. ونظم عام ١٥٠٩ زجليّة تنمّ على حنينه إلى وطنه لبنان، ومنها:

رَحَلْنا للغُرْبِهْ وزِعْلِتْ نْفُوسْنا ... ونادَى بِنا الشَّوقْ لِلْعَادَاتْ
أَطْفالْ آشْتَاقِتْ الى أطْفالْ مِثْلهُمْ ... وِعْيونِ المَشايِخْ سَكَبِتِ الدَّمْعاتْ
وِاْتْذَكَّروا أَوْطانْهُمْ وأهْلِ بْلادْهمْ ... وَأشْعَلْ بِهِمِ الشَّوقْ بالعَبَراتْ
غُيَّابْ اشْتاقُوا والشَّوقْ زايِدا ... والشَّوقْ مثلِ النّارْ بالغاباتْ[3]

ومع الإنشاد والتنغيم يستوي الشاذ ويستَقيم الوزن.

ويعود الدكتور جبور عبد النور (١٩١٣ - ١٩٩١) بتاريخ الزجل اللبنانيّ

(١) بطرس الجميّل: زجليّات جبرائيل إبن القلاعي، ص أ - ج.
(٢) إسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٣٦٧.
(٣) المرجع السابق: ص هـ، و.

الى سليمان الإشلوحي في رثائه باللغة العربيّة العاميّة مدينة طرابلس واصفاً خرابها واحتراقها عندما فتحها السلطان قلاوون المملوكيّ (١٢٧٩ - ١٢٩٠) في نيسان ١٢٨٩[١].

ويمثّل **المطران جرمانوس فرحات**[٢] محطّةً مهمّة في استعمال الأسلوب العربيّ الفصيح، وتأليف كتب القواعد لإقامة الألسنة الملتوية في أتباع ملّته بنوع خاص. وكان له مئة وأربعة كتب كما يقول مارون عبّود[٣]. أمّا نهاد رزّوق فقد أحصى له ٢٥ مؤلّفاً مطبوعاً و ٧٨ مخطوطاً بين ترجمة وتصحيح ولغة وأدب وشعر ودين وتاريخ[٤]. ولم يكن فرحات أوّل من ألّف في علم النحو في الملّة المسيحيّة السريانيّة إذ سبق أن طبع نصر الله شَلَق العاقوري كتاب «مبادىء العربيّة» في رومية عام ١٦٢٢[٥]. ووصف مارون عبّود جرمانوس فرحات بأنّه أوّل روّاد الفصحى[٦]. وقال فيه نهاد رزّوق: «انبلج فجر فرحات المؤلّف في أوائل القرن الثامن عشر الميلاديّ. فتألّقت كتبه فوق تخوم الجهل والتخلّف لتمدّ العقول وتغذّي النفوس بنورانيّة العلم والمعرفة، وتسهم مع معطيات قلّة من أقلام العصر النابغة الجريئة في بعث مقوّمات النهضة الحديثة التي شملت سورية ولبنان وسواهما من الأقطار والبلدان»[٧]. وأقرّت له دائرة المعارف الإسلامية بريادة النهضة الأدبيّة التي توهّجت في البلاد العربيّة خلال القرن

---

(١) Jabbour Abdel - Nour: *Etude sur la poésie dialectale au Liban*, p. 18.

(٢) ولد جبرائيل فرحات في ٢٠ تشرين الأوّل ١٦٧٠ في محلّة الصليبيّة من مدينة حلب، وتوفّي في ١٠ تمّوز ١٧٣٢، وعاش معظم حياته في لبنان، وعمل وألّف فيه. من أساتذته تلميذ المدرسة المارونيّة بطرس التولاوي (١٦٥٨ - ١٧٤٦) (تجد بحثاً مطوّلاً عنه في مجلّة «المنارة»، السنة ٢٥، العددان الأول والثاني، ١٩٨٤، ص ٢٩١ - ٣١٨، بقلم الخوري نبيل الحاج) والشيخ سليمان النحويّ الحلبيّ.

(٣) مارون عبود: روّاد النهضة الحديثة، ص ٤٤.

(٤) نهاد رزّوق: جرمانوس فرحات، ص ٦٩ - ٨٧ و ٨٩ - ١٤٤.

(٥) P. Pierre Raphaël: Le *rôle du Collège Maronite Romain dans l'orientalisme aux XVII e. et XVIII e. s.*, pp. *97 - 98.*

(٦) مارون عبّود: روّاد النهضة الحديثة، ص ٤٢.

(٧) نهاد رزّوق: جرمانوس فرحات، ص ٦٧.

التاسع عشر، وذكرت أنّه جمع حوله شُلَّةً من الشعراء والعلماء على رأسهم نيقولاوس الصائغ (١٦٩٢ ـ ١٧٥٦)(١).

أما شعر فرحات فنمثّل عليه بمقطّعة دينيّة في مريم العذراء، ومقطّعة ثانية يَظهر فيها نمط من الشعر كثرت المباهاة بإتقانه في مبتدأ النهضة ألا وهو «التسميط» أو «التشطير» الذي يعاقب على أبيات قصيدة مشهورة صدراً لعجز وعجزاً لصدر.

قال في بشارة مريم عام ١٦٩٦:

بُشْـراكَ بُشْـراكَ قـد أَدْناكُمُ النـائي ... مُـذْ أَوْمَضَ البَـرْقُ مِنْ تِلْقـاءِ عـذراءِ
فـالجَـوُّ مُنْبَجِسٌ بـالنُّـورِ مَفْـرِقُـهُ ... والأَرْضُ قـد بَسَمتْ عَنْ ثَغْـرِ لَمْيَـاءِ
قـد غَـرَّدَ الطائِـرُ السِـرِّيُّ مِنْ طَـرَبٍ ... لَمَّا رأى القُضْبَ تَرْقُصْ(٢) رَقْصَ هَيْفاءِ
والـرِّيْـحُ تَكْتُبُ فَـوقَ الماءِ أَنْمُلُهـا ... سَـطْراً تُحـاكِيْـهِ بيْنَ الـدُّرِّ والمـاءِ
إِذْ لاحَ شَمْسُ الهُدَى في بُرْجِ طـالِعِهِ ... بِشـارَةٌ قَـدَّسَتْ أَرْحَـامَ حَـوَّاءِ. . .(٣)

وهذا الشعر الدينيّ فتح جديد في الآداب العربيّة يطبّق فيه الشاعر أوزان الشعر العربيّ على موضوعات مسيحيّة خاصّة، وإن كان قد سبقه إلى هذا النمط الشعريّ سليمان بن حسن الغزّي المتنصِّر في القرن الرابع عشر على الأرجح، فإنه لم يحظ من الشهرة ما حظي به شاعرنا(٤).

---

(١) Encycl. de l'Islam, II/814.

(٢) سَكَّن الصاد لضرورة شعريّة.

(٣) جرمانوس فرحات: **ديوانه**، ص ٤.

(٤) شيخو: **شعراء النصرانيّة بعد الإسلام**، ٤٠٠/٤ ـ ٤٢٠؛ و Encycl. de l'Islam, II/815. ومن شعر سليمان الغزيّ الذي وصف شيخو ديوانه بأنّه «أوّل ديوان نصرانيّ بَحْت» (المرجع نفسه، ٤٠٩/٤):

أنـا الـذي كنتُ أولَى أنْ أمـوتَ كمـا ... أَخْـطَيْتُ دونَ المسيـحِ مـا بِـهِ عَيْبُ
يـا ربِّ أَثْبِتْ لنـا نُعمـاكَ فيـه فمـا ... لنـا سِـواهُ عـظيـمُ الـقَـدْرِ مَـطلوبُ
واغـفِـرْ لِمَـنْ نَـظَمَ الأبيـاتَ زَلَّـتَـهُ ... فـإثْـمُـهُ بـإزا عَيْـنَـيْـهِ مَـنْصُـوبُ

(المرجع نفسه، ٤٠٢/٤).

وقال فرحات في مطلع تسميطه لقصيدة ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) العينيّة عام ١٧١٣:

هَبَطَتْ إليكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ نَفْسٌ تَراءَتْ في وِشاحٍ لا يَعي
دَقَّتْ ورقَّتْ جَوهَراً فَكأنّها وَرْقاءُ ذاتُ تَعَزُّزٍ وتَمَنُّعِ
مَحْجوبَةٌ عَنْ كُلِّ مُقْلَةِ عارِفٍ كمّاً وَكَيْفاً كالجِهاتِ الأَرْبَعِ
لكنْ قِواها كيفَ يُمكنُ سَتْرُها وَهِيَ التي سَفَرَتْ ولم تَتَبَرْقَعِ... (١)

ومع كلِّ اهتمام فرحات بقواعد اللغة العربيّة، فإنّ ممارسته لكتابتها لم تخلُ من الهفوات. ومع كلِّ ما نظم بقي في شعره عدد وافر من الجوازات. وممّن لفت إلى هذا الضعف الأب لويس شيخو، ومارون عبود، ودائرة المعارف الإسلاميّة(٢).

ويحسن بنا أن نعطي مكانة متميّزة في نهضتنا الأدبيّة الحديثة للتيّار النهضويّ الوافد من حلب(٣) وحمص على يد روّاد دانت لهم النهضة بكثير من أسسها. نذكر من حلب بطرس التولاوي (١٦٥٨ - ١٧٤٦) العالم الكبير، وجرمانوس فرحات، وعبد الله زاخر (١٦٨٠ - ١٧٤٨)، ونيقولاوس الصائغ، ومؤسّسي الرهبانيّة اللبنانيّة الثلاثة: عبد الله قرألي (١٦٧٢ - ١٧٤٢) وجبرائيل حَوّا (١٦٦٨ - ١٧٥٦) ويوسف البتن (ت ١٧١٤)(٤). ونذكر من حمص آل اليازجي، وبطرس كرامة (١٧٧٤ - ١٨٥١). وعبّر مارون عبّود خير تعبير عن

---

(١) جرمانوس فرحات: ديوانه، ص ٢٧٤.

(٢) شعراء النصرانية بعد الإسلام، ٤/٤٥٦ - ٤٦٤؛ روّاد النهضة الحديثة، ص ٤٧؛ Encycl. de L'Islam, II/815.

(٣) كتب المستشرق كراتشكوفسكي Kratschkowsky (إغناطيوس ١٨٨٣ - ١٩٥١) في دائرة المعارف الإسلاميّة: Alep était l'une des rares villes arabes qui, après la conquête ottomane, avaient maintenu et développé, dans une certaine mesure, une tradition littéraire. (Encycl. de l'Islam, II/814).

(٤) مجلة «المنارة»، السنة ٢٥، العددان الأول والثاني، ١٩٨٤، ص ٣٠٠؛ والأباتي بطرس فهد: تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة، ١/٦ - ١٣.

استمرار شعلة المعرفة في لبنان إذ قال: «في أعماق الديورة وجوار الجوامع، بقي للعلم قبس كنار المجوس الدائمة»[١]. وجاء قول المؤلّف نفسه «إنّ الفصحى سرت إلى لبنان من حلب التي كانت اللغة التركيّة تجري على ألسن معظم سكّانها»[٢] مطابقاً لرأي الرحّالة ڤولني (١٧٥٧ - ١٨٢٠) الذي أقرّ بأهميّة حلب في انطلاق الدراسة العربيّة[٣]. ونبقي، مع ذلك، مكانة خاصّة لثلاث محطّات رائدة في جبل لبنان وسواحله ومدنه، وفي المدرسة المارونيّة، وفي جبل عامل، حَضَنَت الفصحى، وأسهمت في تغذيتها وانتشارها.

٢ ـ السواحل والمدن اللبنانيّة

انتشرت اللغة العربيّة وآدابها في مدن الساحل وبعلبك قبل انتشارهما في مناجع الجبل[٤]، ذلك أنّ الأمويّين والعباسيّين شجّعوا الهجرات العربيّة إلى مدن الساحل، وكان من أوسع هذه الهجرات وأفعلها هجرة التنوخيّين[٥] (أجداد الدروز). ومنهم، في النصف الأوّل من القرن الخامس عشر للميلاد، **صالح بن يحيى** (ت حوالى ١٤٤٦) صاحب «تاريخ بيروت». ورأينا أن نستدلّ على أسلوب الكتابة لدى أهل السواحل والمدن من تاريخه، إذ توفّي قبل سنة تقريباً من ولادة جبرائيل إبن القلاعي (١٤٤٧ - ١٥١٦)، وهو من الطائفة الدرزيّة التي انتشرت، آنذاك، انتشاراً واسعاً في المنطقة الواقعة غربيّ جبل لبنان، ومنها بيروت، وأسلوب أهلها من حيث السلامة والبلاغة في منزلة متوسّطة بين كتابة المسيحيّين الناشئة وكتابة المسلمين المتقدّمة. قال ابن يحيى يذكر بيروت وأخبارها[٦]:

«بيروت مدينة قديمة جدًّا يُستدلُّ على قدمها بعتق سورها ومع عتقه فهو

---

(١) مارون عبّود: **روّاد النهضة الحديثة**، ص ٣٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(٣) Volney: *Voyage en Egypte et en Syrie*, p. 292.

(٤) وليم الخازن: **مظاهر الحضارة اللبنانيّة زمن الدولة العبّاسيّة**، ص ٤٩ و٥٣.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٨ (هامش ٩)، ٢٩، ٣٠؛ وصالح بن يحيى: **تاريخ بيروت**، ص ١٢ وما بعدها.

(٦) المرجع الأخير، ص ٨.

محدث عليها استخذوه (أي اتخذوه) الأولين من خرايب كانت مقدمة أقدم منه بمدد كثيرة لأننا نجد في السور المذكور قواعد من الرُخام وأعمدة كثيرة من الحجر المانع الذي قد تعب عليها الأولين في عَمْلِها وجَلْبِها ونفقوا عليها أموالهم فدلّ ذلك على أنها من خرايب قديمة كانت عظيمة البناء جليلة المقدار فاستهانوها الذين جاؤوا بعدهم وجعلوها في السور المذكور مكان الحجارة التي لا قيمة لها لاستغنايهم عنها بكثرة أمثالها في الخرايب ودل ذلك على أن العماير الأوّله كانت أعظم من الثانية. . .».

يكشف هذا النصّ المكتوب في النصف الأوّل من القرن الخامس عشر، على ما فيه من أخطاء لغويّة، أسلوباً عربيًّا مقبولاً وواضحاً بالنسبة إلى الأساليب الركيكة المشوبة بالعاميّة واللكنات الغريبة في تلك الأثناء. ولا تصحّ مقابلته بأساليب الكتّاب الذين سبقوا انهيار بغداد، أو عاصروا النهضة الحديثة.

وكان من التنوخيّين البحتريّين، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، مفكّرون وكتاب وشعراء جلُّهم أمراء، كالأمير ناصر الدين الحسين بن سعد الدين أمير الغرب المتوفّى عام ١٣٥٠، والأمير شهاب الدين أحمد بن صالح بن الحسين المتوفّى عام ١٣٨١، والأمير شرف الدين عيسى بن أحمد بن صالح المتوفّى عام ١٤٢٣، والأمير جمال الدين عبد الله بن سليمان (١٤١٧ - ١٤٧٩) وهو أشهرهم.

ونكتفي للتمثيل على أدبهم. بمقطّعة من قصيدة وصفيّة لناصر الدين الحسين أمر بأن تُعلّق على باب الحمّام ببيروت:

وحمّامٍ يروقُ العينَ حسناً	تجدْ[١] فيهِ المسرّةُ والنعيمُ
يريكَ الماءَ يسرحُ فوق دُرٍّ	تزولُ بهِ لِمَنْظَرِهِ الهُمومُ
كأنَّ قِبَابَهُ والجامُ[٢] فيهِ	سَماءٌ طالعاتٌ بها نجومُ. . .[٣]

(١) أثبت صاحب كتاب «التنوخيّون»: «تحيطُ بهِ» مكانَ تجد فيهِ، فأنقذ الوزن واللغة.

(٢) الجام: إناء من فِضّة كالكأس.

(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١١٤؛ ونديم نايف حمزة: **التنوخيّون**، ص ١٩٠.

ومن غير الأمراء نختار محمَّدَ بن عليّ الغزّي[1]، وله مدائح في الأمير ناصر الدين الحسين بن سعد الدين، ومقامة في مدحه ومدح أقاربه تشتمل على نثرٍ ونظم، يقول فيها: «وهل في الشام تُشام غير بروق سحايبه، أو يروق غير جمال كتبه وجميل كتايبه، فالجِدُّ والجدوى وقف على سيفه وقلمه، والعفاف والتقوى من طباعه وشيمه، غالباً بآرايه الغنيّة عن الرايات، بالغاً بالآية غايات النهاية ونهاية الغايات، مع كتابةٍ كالروض باكره من كفّه وَسْمِيُّ[2] الغمام، وبلاغة تفعل بالعقول ما لا يفعله المُدام».

ويتبع شعر مطلعه:

حَيَّا الحيا غَـرْبَ بيروتٍ ومَنْ فيـهِ | وجـودُ كفِّ ابْنِ سعدِ الـدينِ يَكْفِيـهِ
ولا غَـدَتْ مَنْ يُغاديـهِ المنـونُ ولا | خَلَتْ مغـانيـهِ يـومـاً من مغـانيـهِ
غَـرْبٌ غدا مَشْرِقاً للجـودِ مـا بَـرِحَتْ | شَمْسُ المكارمِ تُضْحي في ضواحيهِ[3]

ولمحمّد الغزّي مخمَّس مدحيّ من مشطور الرجز يفتتحه بالغزل والشكوى:

يـا حـاديـاً سـارَ ضُحىً بـالـرَّكْبِ | خَـلَّفْتَ جِسْـمي وأَخَـذْتَ قَلْبـي
فَقِـفْ عَسَـى أنْـظُرُ وَجْـهَ حُـبّي | يُقْنِعُنـي قبـلَ حُـلُولِ التُّـرْبِ
تَرْبَحُ[4] أَجْرَ المُسْتَهامِ الصَّبِّ. . .[5]

---

(١) شمس الدين محمّد بن علي بن محمّد الغزّي المتوفّى عام ٧٦١ هـ/١٣٦٠ م. (المرجع الأخير، ص ١٨٩).

(٢) وسميّ: أوّل مطر الربيع لأنّه يَسِم الأرض بالنبات.

(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١١٨. وقد أثبت حاشيةً في أسفل الصفحة جاء فيها: «وكلّما نكتبه لمحمّد الغزّي المذكور فهو نقلاً عن خطّه وعندي منه ما يكتب في مجلّد كبير ضخم الحجم». ونقل نبذةً عن المقامة والأبيات نديم نايف حمزة في كتابه «التنوخيّون»، ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٤) ورد «تربحُ» مرفوعاً وحقُّه أن يكون مجزوماً.

(٥) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١١٩.

وتقدّم نتاج التنوخيّين تقدُّماً ملحوظاً في ما بعد بحيث ظهر، في آخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، شعراء وكتّاب لامسوا النهضة الأدبيّة، وكادوا يتفوّقون على كثير من مظاهرها. نذكر من هؤلاء الأدباء بعض من بقي أدبه مغموراً إلى حدّ كبير كابن سباط (ت ١٥٢٠)، والشيخ زين الدين عبد الغفّار تقيّ الدين (ت ١٦١٤)، والشيخ حسين المِيْمَسَاني (ت ١٦٢٦)، والشيخ علي فارس (ت ١٧٥٣). وإلى جانبهم عَلمان بلغا في عهدهما شهرة واسعة، وهما الشيخ يوسف بن سعيد الكفرقوقي (ت ١٦١١)، والشيخ محمّد أبو هلال الملقّب بِالفاضل (ت ١٦٤٠)[١].

الشيخ يوسف بن سعيد الكفرقوقي[٢]

نظم الكفرقوقي اثنتين وأربعين قصيدة، ومقطوعة واحدة[٣]. ولزم في شعره ما لا يلزم على طريقة أبي العلاء المعرّي (٩٧٣-١٠٥٧). وكان أدبه أدب الزهد والتقوى والورع والعفاف والطهارة والإخلاص والمحبّة والوفاء والصبر والرضا والتسليم والمواعظ والحكم والأمثال والفلسفة[٤]. وهي موضوعات نابعة من البِنية الذهنيّة لبني معروف الذين حاولوا دوماً المحافظة على الأعراف، والتحفُّظ في مجتمعات واسعة لجأوا إليها.

ومن التزامه المهارات الشعريّة ما سُمّي لديه «معشّرات الحروف»، خصّ فيها كلّ حرف من حروف الهجاء بعشرة أبيات مع مقدّمات توافق حرف كل باب. ففي حرف التاء مثلاً:

«تُبّ إلى الله إن طلبت رضاه. تقرّب إليه ودَعْ ما سواه. تبتّل لتلاوة كتابه المُنْزَل. توسّل إلى كرمه بنبيّه المرسل. تابع أهل السنّة بالأفضل الأكمل. تماديك على المعاصي خذلان. تيهك في هواك موقع في الحرمان. تتابع

(١) فؤاد أبو زكي: ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف، ص ٩.
(٢) وُلِد وتوفّي في كفرقوق، وهي قرية في قضاء راشيّا (١٥٣٠؟ - ١٦١١).
(٣) المرجع نفسه، ص ٩٣.
(٤) المرجع نفسه، ص ٩١.

سقطاتك ارتكاس وخسران. تبعات ذنوبك قائدة إلى النيران. تغافلك وتناسيك سبب لغضب الملك الديّان.

١ ـ تـأهَّبْ لِيَـومِ الجَـزا والمَمَـاتْ | فعَـمّـا قـليـلٍ يَـحِـلُّ الـفَـواتْ
٢ ـ تناسيتَ عِرْضَـكَ يـومَ الحِسـابْ | إلـى كَمْ وكـمْ لم تَـفِـدْكَ الـعِـظاتْ
٣ ـ تعـامَيتَ عن ذَنْبِـكَ المُـخْتَشَى | عـليـكَ بــه مُـوجبـاتُ الـشَّـتـاتْ
٤ ـ تـعلَّقْ بـجـانبِ مـن لا يُخَيِّبْ | إليـهِ المنيـبُ، الجـزيـلُ الـهبـاتْ
٥ ـ تَـذَلَّـلْ لـديـهِ بلينِ السُّؤالِ | وطـولِ انـكسـاركَ حتّى الـممـاتْ
٦ ـ تَعُـدْ بعـد طـولِ الجَفا للصَّفـا | وتَـرْقَ الـمعـالـي بتلك الصفـاتْ
٧ ـ تـنـاقَصَ عـمـرُكَ لـمّـا بـدا | تـزايـدُ أفـعـالـكَ الـمُـنْـكَـرَاتْ
٨ ـ تَمَـرَّدْتَ عن حُسْنِ لينِ القبـولِ | لآيـاتِ مُـوجِـدِكَ الـبـيِّـنـاتْ
٩ ـ تُـرَى مـا جـوابُـكَ لمّـا غـداً | تُـنـادَى بـأفعـالِـكَ المُخْـزِيـاتْ
١٠ ـ تَـرومُ الـنجـاةَ بـلا تَـوبـةٍ | وإنْ تِبْتَ، يا صاحِ، أينَ الثَّبـاتْ؟(١)

وله تخميس للاميّة محمّد البوصيري (١٢١٣ ـ ١٢٩٦) صاحب قصيدة «البُردة» في ٣٤٢ بيتاً و ١٦٦ شطراً مستقلاً، مطلعه:

يـا غافـلاً منه طيبُ الفعـلِ مَجْهـولُ | عَنِ الهُـدَى بضـلالِ الغيِّ مَعْـقـولُ
فهـا دليـلٌ أتى نُصحـاً ومـدلـولُ | الى متى أنتَ بـالـلذّاتِ مَشْـغُـولُ؟
وأنتَ عَنْ كـلِّ مـا قـدّمْتَ مَسْؤُوْلُ(٢)

وبدا شَغوفاً بالتلاعب اللفظيّ والبيانيّ كما في قصيدته: «دُرَر النُّحور في التوبة الى الملك الغفور»:

أنـا الفقيـرُ الكَسيـرُ المُسْـرِفُ العـاني | أنـا الذليـلُ الضَّعيفُ العـاجـزُ الـواني
أنــا الضعيفُ أسيـرُ اللَّهْـوِ في مَـرَحٍ | أنـا الجَهولُ الغَفـولُ المُـذْنِبُ العـاني
أنـا الـذي لم أفِ بـالعِلْمِ في عَمَلي | أنـا الـذي سـاءَني جَهْلِي وعِصْيـاني

(١) المرجع نفسه، ص ١٤٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ٩٧.

أنـا المُسَـوِّفُ في الأيـامِ أقـطعُهـا   لَهْـواً وسَهْـواً بتفـريـطي وإرْكـاني
أنـا المُضَيِّـعُ أوقـاتي بـلا عَـمَـلٍ   يُـرضي الإلَـهَ فيـا ذُلِّي وخُسْـراني(١)

وللكفرقوقي ألفيّات شعريّة تسير أوائل أبياتها على حروف الهجاء، ومنها الألفيّة المربّعة على الشكل التالي:

يـا ذا القُـدُسِيّـةْ يـا ذا القُـدُسِيَّـةْ أَصْـلِحْ لي قـلبي في صَفْـوِ النِيَّـةْ
أنـا المُسْتَعْـفِي بـاللّطف المَخْفي يـا مَـوْلَـى الـلّطفِ يـا ذا العَـطِيَّـةْ
بـالهادي المُهْـدِي من نـورِ الرُّشْـدِ بـالفَضْـلِ المُسْـدِي يـا ذا الجُـودِيَّـةْ
تُبْ على المُخطِي يـا مولىً مُعْـطي وَامْـدُدْ لي بُسْـطي يـا ذا الأُنْـسِيَّـةْ
ثَـبِّـت إيـمـانـي واصْلِحْ لي شـاني يـا ذا الإحـسـانِ والجَبْـروتِـيَّـةْ(٢)

وإلى جانب التصنُّع والتفنُّن والتزام ما لا يلزم، نظم الكفرقوقي قصائد كثيرة على الأوزان التقليديّة. منها، على وزن «البسيط»، قصيدة «وصف الأصدقاء» ومطلعها:

يـا قَلْبُ دَعْ مَنْ تُعاني من بني الـزَّمَنِ   ففي الـودادِ صحيحُ القَـومِ كـالـزَّمِنِ
وكُـنْ على حَـذَرٍ مِـمَّـنْ وَثِـقْـتَ بِـهِ   فـمـا صَـديقٌ عـلى وُدٍّ بِمُـؤْتَـمَـنِ(٣)

لا يتخلّل شعره ضعف أو ركالة، وإنّما كانت نماذجه على غرار النابهين القدماء، إلى حِرصه على إظهار فنونه ومهارته.

ولا يقلّ نثر الكفرقوقي قيمةً عن شعره، وهو يجيد بلوغَ أهدافه المعنويّة، متوسلاً إليها بطرائق الإرسال المعهودة في أيامه. مثلاً في الابتهال: «إلَهي! شفيعنا إليك الذلّ والانكسار والندم والرجوع والدموع الغزار. إلَهي! إن كانت ذنوبنا قد أخافتنا من عقابك فإنّ حسن الظنّ قد أطمعنا في ثوابك. فإن عفوت

(١) المرجع نفسه، ص ١١٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٣.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٣٧.

فمن أولى منك بذلك، وإن عذّبت فمن أعدل منك هنالك؟ . . .»[1].

وابتهاله هذا يشهد بما توصّل إليه في مطالعاته وتمرُّسه بالكتابة من تطوُّرٍ وإيذانٍ بالنهضة الآتية. وإنّما الحرص على السجع في نصّه أوقعه في استعمال لفظة نافلة، أقحمها إقحاماً بغير مسوِّغ، وهي لفظة «هنالك» التي يستغني عنها المعنى بلا خلل.

وللأديب موعظة طويلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المُنْكَر والاعتبار بمن رحل. وأسلوبه فيها تأثُّري حيّ، نابض بالحياة، يكثر فيه التكرار والسؤال، وعبارات التأوُّه والتفجُّع والأسى. منها:

«إخواني!

قلوبنا بالغفلة رحلت عن الأجسام. إخواني! الى مَن أتحدّث وليس في الحيّ خيام؟ إخواني! أما تنظرون إلى ما فعلت بنا الزلّات والآثام؟ قيّدنا التقصير ودنا الحِمام. فأوّاه علينا من هول يوم النشور ونفخٍ في الصُّور. بالله يا إخواني إلى متى تؤخّرون المتاب؟ وهذا المشيب قد أتى وقد تولّى الشباب؟ يا هذا متى تصالح مولاك؟ متى تقف بالباب؟ . . .

آه على قلوبٍ أذابها حرُّ الغليل. آه على نفوس أفناها البكاء والعويل. آه على جوارح قابلت بقبحها الفعل الجميل. آه على قلوب لم تتفكّر في يوم الموت والرحيل. آه على أكباد تنقطع خيفةً من الملك الجليل. آه على جنّة عدنٍ وظلّ ظليل. . . »[2].

الشيخ الفاضل محمّد أبو هلال[3]

مارس الشيخ الفاضل الأدب شعراً ونثراً، فقصّد القصائد في مختلف

(1) المرجع نفسه، ص ١٧٢.

(2) المرجع نفسه، ص ١٧٣ ـ ١٧٧.

(3) ولد في «كوكبة أبو عرب»، في قضاء راشيّا الوادي، حوالى عام ١٥٧٩، وتوفّي في «عين عطا» عام ١٦٤٠. كان شديد التقشّف حتّى الاعتزال في المغاور. بلغ مرتبة شيخ العقل. وكما عبّر أبو زكي: «طبّقت شهرة تقواه وعلمه وورعه وزهده وعفافه وطهارته آفاق لبنان» (المرجع نفسه، ص ١٧٩ ـ ١٩٠).

الأبواب الشائعة في زمانه من غزلٍ ومدحٍ وهجاءٍ ووصفٍ واعتذارٍ وزهدٍ وتصوُّف. وكتب الرسائل الدينيّة الناضحة بالنصائح والوعظ والتواضع والأدعية، ما يجعلنا نفسح له، في مجال باب التصوّف اللاحق، مكانةً خاصّة، مكتفين، ههنا، بتقديم ما تيسّر من أغراض **شعره الزمنيّ**.

من باب الغزل قصيدته «مشوقة القلوب إلى لقاء المحبوب»، ومطلعها:

شوقاً يشبُّ زفيراً من حرارتِهِ   والدمعُ ما بين مَسْجورٍ[1] ومُنْسَجمِ
نيرانُنا لم تزل دَوْماً لبعدكمُ   مَسْعُورَةً بْهَجيرٍ دائمِ الضَّرَمِ
أرواحُنا نحْوَكُمْ بالشّوقِ طائرةٌ   قلوبُنا لم تَزَلْ بالبُعْدِ في أَلَمِ
مُنُّوا علينا بقربٍ في جوارِكُمُ   وَإجْعَلونا لَكُمْ في جُمْلَةِ الخَدَمِ[2]

ومن **الشعر الدينيّ** قصيدة «يا نبيِّي»، يقول فيها:

يا نبيِّي يا مُمَجَّدْ   يا نظامَ العَالَمينْ
يا نبيِّي يا مُعَظَّمْ   يا وَلِيَّ المَنْزِلَينْ
يا نبيِّي يا مُقَدَّسْ   يا مليكَ الحالتَينْ[3]
يا وَلِيَّ اللَّه حَقًّا   يا رجيحَ الوزنتَينْ
يا صَفِيَّ اللَّه صِدْقاً   يا سِرَاجَ الخافِقَينْ[4]

وله قصيدة طويلة (٢٤٥ بيتاً) بعنوان «يوم البعث» يقول في مطلعها:

ألا أيُّها الناسُ النيامُ تنبّهوا   وجدّوا جُهُودَ الفائقِ اليقظانِ[5]

(١) مسجور: متّقد.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٤.
(٣) حالة العسر وحالة اليُسر.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢١٧. الخافِقان: المَشْرِق والمَغْرِب.
(٥) المرجع نفسه، ص ٢١٩.

وفي **الإخوانيّات** قصيدة طريفة بشكل «رسالة إلى المشايخ الحلبيِّين»، ومطلعها:

أهيمُ مُحَيَّا القوم منهم تودُّداً ... بأوفى سَلامٍ ثم أزْكى تحيَّةِ
حاءُ حَذاه الشّوقُ نَحْوَ مَحَلِّهمْ ... فَهُمْ مَقْصَدي دون الأنام وبُغْيَتي
. . . واوٌ وإنْ كان البُعادُ مسافَةً ... ولاهُمْ قريبٌ في حَشائي وَمُهْجَتي
دالُ دَواهُ عِنْدَكُمْ ليسَ خافياً ... ودائيَ مِنْهُمْ مِنْ صحيحِ المَحَبَّةِ(١)

نرى في ما أثبتناه من شعره أنه يعبّر بصدق وإخلاص عمّا يجيش في صدره. وقد يتصنّع في معرض الظرف والمنافسة. وأسلوبه عربيّ صميم. وإلى ما شاهدناه من تصنّع في إخوانيّاته، نقرأ لفؤاد أبو زكي: «إنَّ الفاضل يُعتَبر من الشعراء المطبوعين الذين لم يحاولوا التصنّع والتكلّف في نظمهم»(٢). وقد يَرْجُحُ اقتناعنا بهذا الرأي عندما نعالج شعر الشيخ الفاضل الصوفيّ في موقعه من الدراسة.

أمّا نثر الشيخ الفاضل فكثير، وجُلُّه مواعظ ونصائح وتوجيه أخلاقيّ متوجّب على الشيخ الشهير بعلمه وتقاه، والمقصود من كلّ حَدَبٍ وصَوب. وأمّا أسلوبه النثْريّ فنحكم عليه بعد إيراد نموذج منه: «رسالةٌ إلى الإخوان المُحِقِّين».

بعد البسملة والحمد لله والصلاة والسلام عليه وعلى رسوله الأمين في استهلال طويل يبلغ صفحةً كبيرة وربع صفحة، يتوجّه الشيخ الفاضل إلى الإخوان:

أيُّها الإخوان المُحِقُّون!

الأجلّة المهتدون، السالكون سبيل الهدى والإيمان، المتمسِّكون بطاعة المليك الديّان، الواقفون على منهج الحقّ والصدق والإتقان، العابدون لله الواحد المنّان، المقرّون بوحدانيّته في كلّ عصر وزمان. وحَرَسَكُم المولى من

(١) المرجع نفسه، ص ٢٣١. وَرَمَزَ بالحاء والواو والدال، إلى أوّل حرف من أسماء الشيوخ.
(٢) المرجع نفسه: ص ١٩١.

خطوات الشيطان، وكلأكم وأعانكم وأولاكم، وأمدّكم بمواد توفيقه، وأخذ بكم في الصواب والخير إلى أبهج طريقه، وأعاننا وإيّاكم على المبالغة في مرضاته، ووفّقنا وإيّاكم حقوق دينه ومفترضاته. . .»[١].

إنّ أسلوب الشيخ الفاضل، كما نراه، سهل واضح. ولغته متماسكة متينة تسير على سَنَن الكتّاب العرب الكبار في عزّ نهضتهم، كعبد الحميد الكاتب (ت ٧٥٠) في رسالته إلى الكتّاب[٢] وغيره، قبل أن تسيطر على الترسُّل ضروب الصناعة والبديع. أمّا السجع المعتمد، أحياناً، فهو، عدا دُرْجَة العهد، يجاري التأثّر بالموضوع، ويهدف إلى مزيد من التأثير في القارىء.

طرابلس

كانت طرابلس منذ القرون الوسطى ومنذ حكم بني عمار (١٠٧٠ ـ ١١٠٩) ومكتبتهم الشهيرة، بؤرة ثقافيّة ومقصداً للكتّاب والشعراء والعلماء والمتأدّبين. أمّتها طائفة من الشعراء النابغين قبل عهد بني عمّار، وعلى رأسهم المتنبّي (٩١٥ ـ ٩٦٥) وأبو العلاء المعرّي (٩٧٣ ـ ١٠٥٧). ومثلما كان أدباء جبل عامل وشيوخها الشيعة يتوافدون على النجف الأشرف في العراق وعلى مدارس إيران ومساجدها، كان الطرابلسيّون السنيّون يقصدون الأزهر ودمشق، ويتلقّون روافد المعرفة والتوجيه الثقافي من جامعي بل جامعتي «القيروان» و«الزيتونة» في تونس. وشكّل دخول الصليبيّين طرابلس في ٢٦ حزيران ١١٠٩ نكسة لاستمرار نهضتها الثقافيّة. وما إن خرجوا من بلادنا عام ١٢٢٤ حتى عادت طرابلس تتنفّض من كبوتها، وتحيي ماتهدّم من تراثها[٣].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٢) **المجاني الحديثة**، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٢، ٢/٣٣٣ ـ ٣٣٧.

(٣) محمّد علي مكّي: **لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني**، ص ٩٩ ـ ١٠٢؛ ووليم الخازن: **مظاهر الحضارة اللبنانيّة زمن الدولة العباسيّة**، ص ٥٠ ـ ٥١؛ وعبد الله نوفل: **كتاب تراجم علماء طرابلس وأدبائها**، ص ٢.

كتب الدكتور بكري شيخ أمين في كتابه «مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني»: «ولما جاء عهد المماليك استمرّت الحركة الثقافيّة لأنّهم كانوا، على الرغم من بعدهم عن العروبة، يؤمنون بالإسلام، ويخلصون له، ويتحمّسون لعلومه وآدابه ولغته، وقد أبقوا لنا مدارس كثيرة في الشام ومصر والحجاز لا تزال شاهدة على نشر العلم وتعميمه. ولم يخلُ عهد أحدهم من إشادة مدرسة أو خزانة كتب، أو تأسيس كُتّاب للأطفال أو دار قرآن للأيتام أو دار حديث للطلاّب»[1].

ومن القرن الخامس عشر ابتدأنا نتّصل بطائفة من شعراء الفيحاء وكتّابها ومعلّميها من الأئمّة والشيوخ. وكتاب عبد الله نوفل «تراجم علماء طرابلس وأدبائها» يعطي فكرة جيّدة عن نهضة اللغة والآداب، آنذاك، في عاصمة الشمال.

وظهرت بعد صاحب «التراجم» كتب وأطاريح ومقالات كثيرة تبيّن دور طرابلس الثقافيّ خلال القرون الماضية، وطابع الاستمرار والتواصل اللذين اتّصف بهما دورها هذا. كما نقرأ للدكتور نعمه الديب، وهو يتحدّث عن ملامح المدينة الفكريّة والأدبيّة بالاستناد إلى غير مصدر ومرجع: «فقد عُرفت طرابلس عبر العصور بأنّها «مدينة العلم والعلماء» بما حوت من مئات ألوف الكتب القيّمة التي نهل منها العلماء والأدباء والشعراء المعارف السائدة زمن تلك العصور، كما قدم إليها مشاهير الأعلام ليأخذوا عن محدّثيها، ويزوروا دور العلم والمكتبات فيها. هكذا كانت حالها في الماضي والتي استمرّت مع الزمن بفضل اهتمام بل شغف أبنائها بالعلم والأدب. ولا غرو في ذلك، بالنسبة إلى طرابلس، لأنّها كانت مَرْبَضاً من مَرابض الحضارة، والفكر، والإشعاع الذي سطعت أنواره في العالم، وهي تحمل رسالة فكريّة وروحيّة بارزة»[2].

---

(١) بكري شيخ أمين: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص ٥٧.

(٢) نعمه الديب: شاعر الفيحاء سابا زريق (١٨٨٦ - ١٩٧٤) حياته وآثاره، أطروحة دكتوراه اختصاص في اللغة العربيّة وآدابها بجامعة القدّيس يوسف، آذار ١٩٨٦، ص ٥٠ - ٥١.

ثالثاً: المدرسة المارونيّة

ألف ـ تأسيسها

تأسّست المدرسة المارونيّة عام ١٥٨٤ برومية في عهد البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢ ـ ١٥٨٥) والبطريرك المارونيّ سركيس الرزّي (١٥٨١ ـ ١٥٩٧). وكان لها ولتلاميذها الأثر البيّن في اللغة والعلوم والترجمة والنهضة الإنسانيّة العامّة في لبنان والغرب(١).

وقبل افتتاح المدرسة المارونيّة كان البطاركة «يرسلون الأحداث الأذكياء المرشّحين للكهنوت إلى روما لكي يتعلّموا في كليّاتها الأوروبيّة ويتقنوا الفلسفة واللاهوت وما إليهما من العلوم الرفيعة، ليتمكّنوا من ترجمة البراءات الحبريّة والكتابات الرسوليّة، وبالتالي كي يقدروا أن يصحّحوا الكتب الطقسيّة وينقّحوها ويطبعوها مع ترجماتها ويساعدوا إخوانهم اللبنانيّين على الترقّي في مدارج المعارف الدينيّة والمدنيّة على السواء»(٢).

---

(١) قال مارون عبّود في «صقر لبنان» (ص ٧٣): «والمدرسة المارونيّة في رومة، التي كان لها أعظم أثر في تمشرق الغرب وتمغرب الشرق، كانت غايتها الأولى الدين». وقال صلاح لبكي في «**لبنان الشاعر**»: «هنالك حدثان هامان أثرا في مجرى الحياة الفكريّة في الشرق العربيّ كلّه، وما الشعر إلّا ناحية من هذه الحياة. أوّلهما عودة تلامذة مدرسة رومة المارونية التي كانت قد أنشئت سنة ١٥٨٤ إلى لبنان. وثانيهما مجيء نابليون إلى الشرق. ومعنى الأوّل أنّ لبنان قصد الغرب فأحضره إلى الشرق. وهذه البادرة تكرّرت يوم ذهب الأمير فخر الدين المعنيّ (١٥٧٢ ـ ١٦٣٥) إلى توسكانا فتعرف في فلورنسا عاصمة الحضارة الغربيّة يومذاك إلى نسق المعيشة وإلى الفنّ وإلى القصور وحمل إلى بلاده الرغبة في محاكاة تلك الحضارة العظيمة. ومعنى الثاني أنّ الغرب عاد فقصد الشرق. وكان من أمر هذين الحدثين العظيمين على تطوّر النهضة الفكريّة في الشرق أنّهما ألهبا الشعلة في لبنان ومصر» (المجموعة النثريّة، ص ١٣٤).

وأثير بوضوح في الذكرى المئوية الثانية لوفاة ميخائيل الغزيري (١٧٠٨ ـ ١٧٩٢) والتي أحيتها جامعة الروح القدس في ١٩٩٢/١١/٢١، دور العالم اللبناني الطليعيّ في الاستعراب أي نقل اللغة الغربيّة وثقافة العرب إلى الغرب. وجاءت في هذه الذكرى خمس شهادات لعلماء إسبان تشيد بفضل الغزيري، خصوصاً في تبويب مخطوطات مكتبة الإسكوريال (المكتبة الملكيّة الإسبانيّة) وجدولتها ونشر الدراسة العربية في إسبانية (جريدة النهار، ١٩٩٢/١١/٢٤، ص ١٩).

(٢) **ملحق كتاب تاريخ الأزمنة**، من وضع الآباتي بطرس فهد، ص ٦١٨؛ عن الكردينال نرلي في الكتاب الذي طبعه برومية عام ١٦٨٥ حول المدرسة المارونيّة.

واتّصال لبنان بالغرب، وخصوصاً بفرنسة، والتفاعل الحضاريّ بينهما قديم، تجلّى منذ الحملات الصليبيّة. ويمكن مراجعة هذا التفاعل، والأشخاص الذين أمّنوه، والمؤسّسات التي رعته، في كتب أدبيّة وتاريخيّة كثيرة(١).

أدار الآباء اليسوعيّون المدرسة المارونيّة منذ تأسيسها حتى عام ١٧٧٣ إذ حلّ الحبر الأعظم جمعيّتهم. وتخرّج فيها ٢٨٠ تلميذاً قبل اجتياح بونابرت لرومية عام ١٧٩٨ ووضع يده على المدرسة، وقد قرّر إغلاق المؤسّسات الدينيّة ومصادرة أموالها. وانتظرت المدرسة المارونيّة العام ١٨٩٢ لكي تفتح أبوابها مجدّداً بفضل البابا لاون الثالث عشر (١٨٧٨ - ١٩٠٣) «بابا العمّال»، والمطران الياس الحويّك (١٨٤٣ - ١٩٣١) الذي أصبح بطريركاً (١٨٩٩).

تخرّج فيها أكثر من أربعين أسقفاً خدموا طائفتهم واللبنانيّين عموماً بما حصّلوا من علوم ومعارف. وأغلقت المدرسة نهائيًّا في بداية الحرب العالميّة الثانية عام ١٩٣٩، وما زال بناؤها ملكاً للطائفة المارونيّة، ومقرًّا للنائب البطريركي في رومية(٢).

باء - أثرها في اللغة والآداب العربيّة

توصّل النقد الحديث إلى نظريّة قوامها النظر في النصوص على ضوئها

---

(١) منها بالفرنسيّة *Les Échanges Culturels entre les Maronites et l'Europe du Collège Maronite de Rome (1584) au Collège de Ayn - Warqa (1789)* Beyrouth, 1984 (Nasser Gemayel).

وكتابان لهُدَى عَدْرَة: في منشورات الجامعة اللبنانية: الأول عام ١٩٨٢ والثاني عام ١٩٨٥.
Gérard De Nerval et *le Liban*, et *Flaubert et le liban.*

(٢)

السنوات التي فتحت فيها	المجموع	السنوات التي أقفلت فيها	المجموع
١٥٨٤ - ١٧٩٨	٢١٥	١٧٩٨ - ١٨٩٢	٩٤
١٨٩٣ - ١٩١١	١٩	١٩١١ - ١٩١٩	٨
١٩٢٠ - ١٩٣٩	٢٠	١٩٣٩ - ١٩٨٣	٤٤
	٢٥٤		١٤٦

عن الدكتور جوزيف أبو نُهرا: الظروف التاريخيّة لنشأة المدرسة المارونيّة الحديثة، مجلّة المنارة، السنة ٢٥، العددان الأوّل والثاني، ١٩٨٤، ص ٣٥٤.

بالذات، لا على ضوء أحدث النظريّات النقديّة. فالنصّ نفسه ينطوي على مقاييس نقده. لا أتحدّث هنا عن الألسنيّة التي يمكن أن يفيد منها النقد إفادة جُلّى بالنظر إلى ظاهر النصّ، ولكنّني أقصد عمق المبنى والمعنى معاً.

انطلاقاً من مفهوم النقد الحديث هذا، أتناول نتاج المدرسة المارونيّة في اللغة والآداب العربيّة، متخطّياً المحطّات التاريخيّة التي كثر تداولها وتَقْلِيب مضامينها. ولن أبالغ مع الدكتور أنطون غطّاس كرم الذي ارتأى أنّ «الكلام على الأدب يبدأ حيث ينتهي الكلام على التاريخ»(١)، فالتاريخ والأدب، عندي، خِدْنان متلازمان، يتعاونان ويتكاملان.

نشأت المدرسة المارونيّة في عهد كان التأخّر يخيّم فيه على العالم العربيّ، لا التأخّر التاريخيّ اللغويّ بنوع خاص، لأنّ ذاك العصر لم يخلُ من أساليب بيانيّة، وكتب لغويّةٍ وتاريخيّة، وفيه نشأت تصانيف شتّى في مصر والشام خصوصاً، ولكنّه تأخّر سياسيّ واجتماعيّ وإبداعيّ في ظلّ العثمانيّين المتخلّفين لغةً وحضارة. وَصَفَ جرجي زيدان ذاك العصر بأنّه «عصر الشروح والحواشي»(٢).

وكان الجوّ الأدبيّ في لبنان على شيء من الانتعاش. ألم تُعزَ إلى الأمير فخر الدين الثاني (١٥٩٠ ـ ١٦٣٥) نفسه أبيات زجليّة؟(٣) ألم يُنسب إليه أنّه أراد السير بلبنان في سبيل الحضارة العصريّة؟(٤).

---

(١) **ملامح الأدب العربيّ الحديث**، ص ١١.

(٢) **تاريخ آداب اللغة العربيّة**، ٢/٢٨٥.

(٣) من أقوال الأمير فخر الدين مجيباً يوسف سِيفا:

نِحْنـا صْغـارْ وفي عـينِ الـعَـدُوّ كْبـارْ	إنْتُـو خَشَبْ حَـوْرْ نِحْنـا لِلْخَشَبْ مِنْشارْ
وحَقّ طِيبَـةْ وزَمْـزَمْ والنّبي الـمُخْتـارْ	مـا بْعَمِّـرِ الـدَّيْـرْ إلّا مِنْ حَجَـرْ عَكّـارْ

وقيل إنّ الأمير فخر الدين غنّى موّاله هذا بعدما سمع الموّال الذي ردّت به ابنته «ستّ النصر»، زوج حسن بن يوسف سيفا، على موّال السيفيّات اللواتي عرَّضْنَ فيه بقصر قامة أبيها. (كرم البستاني: **أميرات لبنان**، ص ٦٤ ـ ٦٦).

(٤) فيليب حتي: **لبنان في التاريخ**، ص ٤٥٤ و٤٦٣. كتب المستشرق الألمانيّ هنريخ ـ فرديناند ڤوستنفلد (١٨٠٨ ـ ١٨٩٩): «لقد تقرّب (فخر الدين) من جهة إلى فئة من الناس فأجزل عليهم =

وجاء في مقدّمة فؤاد أفرام البستاني لكتاب أسامة عانوتي «الحركة الأدبيّة في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر»:

«القرن الثامن عشر مهضوم الحقّ، مبخوس القدر، في تاريخ الآداب العربيّة، على ما تأكّد لكاتب هذه الدراسة. فاندفع، جاهداً للانتصاف له، ولتخليصه من أَسْر الأحكام التقليديّة التي يتخطّفها الباحث من الباحث دونما استقصاء ولا تمحيص.

ولعلّ مردّ هذه الأحكام التقليديّة إلى القول المردّد المتكرّر، المتناقل في أكثر كتب الأدب: إنَّ دويّ مدافع بونابرت، في أرجاء وادي النيل، أيقظت الشرق من سباته الطويل. وهو قول، إن صحّ على مصر التي لم تعرف الطباعة، ولا المدارس العصريّة، إلاّ في الربع الأوّل من القرن التاسع عشر؛ فلا يصحّ على لبنان الذي عرفها، ونعم بها، منذ أوائل القرن السابع عشر، برجوع الأفواج الأولى من خرّيجي المدرسة المارونيّة برومة؛ ولا على بعض أنحاء سورية، ولا سيّما حلب، التي عرفت الطباعة وما يليها من حركات فكريّة، منذ أوائل القرن الثامن عشر، بفضل علاقاتها بأوروبة، وبفضل اتخاذ المرسلين إيّاها مركزاً أوّل لعملهم الثقافيّ، ومنطلقاً لنشاطهم التبشيريّ».

أمّا أوروبة، فقد انتعشت النهضة فيها منذ القرن الخامس عشر في كل الميادين، وخصوصاً إيطالية التي أضحت واسطة العقد في احتضان هذا الانبعاث الجديد، ودعمه، وتصديره[1].

وشارك خرّيجو المدرسة المارونيّة في النهضة الأوروبيّة، وتفاعلوا معها، آخذين ومعطين في إيطالية وفرنسة بخاصة. فمنذ توافدوا إلى المدرسة، وابتدأوا يتخرّجون فيها، عاونوا المستشرقين الأوروبيّين وشاركوهم ترجمةً

= العطاء، ولا سيّما الشعراء الذين كانوا يقصدونه فيمدحونه فينالون منه المكافأة هدايا ثمينة» (فخر الدين أمير الدروز ومعاصروه، ص ١٤٩). وفي ذيل المصدر الأخير دراسة لفؤاد أفرام البستاني بعنوان «تراث الأمير فخر الدين»، ص ١٩٣ ـ ٢١٥، تبيّن ما امتاز به عهده من نهضة وإنجاز حضاريّ.

(١) الياس القطّار: مجلّة المنارة، ١٩٨٤، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

وتأليفاً. وعندما أغلق بونابرت المؤسّسات الدينيّة بما فيها المدرسة المارونيّة وصادرها على أموالها عام ١٧٩٨، اتّخذ تراجمة ومعاونين من تلاميذها كالياس فتح الله، ويوسف مسابكي اللبنانيَّين، والأخ مَشْهَرَة شامي المارونيّ الحلبيّ(١).

وما زال اسما جبرائيل الصهيوني (١٥٧٧ ـ ١٦٤٨) وإبراهيم الحاقلاني (١٦٠٥ ـ ١٦٦٤) يشعّان على مدخل المعهد الملكيّ Collège Royal في باريس. وممّن علّم فيه يوحنّا الحصروني (ت ١٦٢٦) وسركيس الجمري (ت ١٦٦٨). واعترف المستشرق الإيطالي إغناطيوس غويدي Ignazio Guidi (١٨٤٤ ـ ١٩٣٥)، أستاذ طه حسين في الجامعة المصريّة، بأنّه أجاد العربيّة بفضل اتّصاله برجال الإكليروس المارونيّ المقيمين في رومية، خصوصاً الأباتي جبرائيل القرداحي (١٨٤٥ ـ ١٩٣١)(٢) الذي كانت تربطه به صداقة حميمة(٣).

ولا أراني بحاجة إلى التوقّف طويلاً عند فضل خرّيجي المدرسة المارونيّة في لبنان والمشرق العربيّ، فإنّ مؤلّفاتهم الجمّة، ومدارسهم الكثيرة، تشهد بمآثرهم. ويكفي أن تكون، من ثمارهم، مدرسة عين ورقة الشهيرة التي أسّست عام ١٧٨٩، وغدت، بفضل من خرّجتهم من رجالات العلم واللغة والآداب والدين، منارة حضاريّةً ساطعةً، ومركزاً نهضويًّا مرموقاً(٤).

وفي دراستي هذه، سوف أقتصر على معالجة أثر المدرسة المارونيّة في اللغة والآداب العربية، منطلقاً من نماذج معيّنة لتلاميذها، في أبرز الموضوعات

---

(١) Pierre Raphaël, *Le rôle du collège maronite romain,* p 63.

(٢) راهب مارونيّ أستاذ اللغات الشرقيّة في البروبغندا (رومية). له «اللباب» وهو قاموس سريانيّ عربيّ، ١٨٨٧ (المنجد في الأعلام، ص ٥٤٧).

(٣) فردينان توتل: **اغناطيوس غويدي المستشرق الإيطاليّ الكبير**، مجلّة المشرق، س ٣٣، تموز ـ أيلول ١٩٣٥، ص ٤٤٦. ولنا شاهد آخر في وزير الثقافة الفرنسيّ جاك لانغ Jack Lang الذي نوّه عام ١٩٨٢ بفضل خرّيجي مدرسة رومية في مجالات العلوم والطباعة والتأليف. (*Le livre et le Liban,* p. 11).

(٤) راجع في هذا الموضوع كتاب الأب الدكتور ناصر الجميّل:
Les échanges culturels entre les maronites et l'Europe du Collège Maronite de Rome (1584) au Collège de Ayn - Warqa (1789).

التي اختطّوها لأنفسهم نثراً وشعراً، مبتدئاً بالرسائل، فالترجمة، فعلم الكلام والمنطق، فالتربية والتعليم، فالقوانين والعقود، فالتاريخ، وأخيرًا الشعر. وفي النهاية أذكر محصّلة بحثي في نقاط محدّدة، فأعدّد بإيجاز فضل المدرسة المارونيّة على اللغة والآداب العربيّة.

١ ـ الرسائل

أبدأ بالرسائل لأنّها، فضلاً عن كثرتها المطلقة بين رومية والغرب عموماً وبين لبنان[١]، توفّر مصدراً أقرب ما يكون إلى العفويّة والسلفيّة، وبالتالي أبين وأقرب دلالة على الأساليب الكتابيّة المستعملة.

١٠١ ـ رسالة من جبرائيل الباني أوّل تلاميذ المدرسة المارونيّة، كتبها بعد رجوع الأب إليانو من مصر إلى البندقيّة عام ١٥٨٥، ومنها يظهر حب التلامذة للأب إليانو وعرفانهم جميله:

«بسم الاب والابن والروح القدس

أقبل الأرض وأحني بالهامة الخاطئة بين الأيادي الطاهرات التقيات الزكيات اي ايادي المحب الحنون وتاج راسي وقرة عيني ومهجة فؤادي المحب المحبوب أبي القس باطيشتا[٢] سلّمه الله تعالى.

سبب تسطيرها الأشواق إلى نظرك البهيّ الله يروينا إياه بخير وعافية...».

(التوقيع: احقر الناس عبدك وابنك جبرائيل الباني ابن القسّ يوسف)

وفي رسالة أخرى كتبها جبرائيل للأب إليانو باسمه وباسم ثمانية من رفقته يقول:

«أقبل الأرض وانحني بين أقدام السائر بخدمة العلي الشريف ربّنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي وعد بإنجيله المقدّس ملكوت السموات

---

(١) يقول الدكتور أسامة عانوتي في كتابه الحركة الأدبيّة في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر: «لقد أربت نسبة الرسائل من نثر العصر على نسبة فنونه الأخرى». (ص ٩٠).

(٢) اسمه الكامل جوان باطيشتا إليانو.

للمجتهدين بعمله... امين. إلخ... فمن كل بد وسبب يا أبونا. إلخ»[1]...

٢٠١ ـ كتاب الخوري يوحنّا أيّوب الحصروني في نفس السنة والمناسبة:

«بسم الربّ حافظ خائفيه وموصلهم الى درج الكمال كما يتوق الأيّل الى ينبوع المياه كذلك تاقت نفسي الى حضرة الأب القدّيس الجوهر النفيس الذي ليس في قداسته شك على الاعلام ومصباح الظلام... فخر العلماء وزين الكهنة أبي ومعلّمي وتاج رأسي القس باطيشتا أدام الرب كهنوته ويرحمني ببركة صلواته. إلخ...

تلميذك الحقير في الكهنة يوحنا
الحصروني من جبل لبنان.»[2]

٣٠١ ـ رسالة البطريرك سركيس الرزي الى الأب إليانو بتاريخ ٢٥ آذار ١٥٨٥ يهنّيه فيها بالنجاة من محنته ويوصيه بالتلاميذ الموارنة:

«بطرس بطريرك الموارنة (بالكرشوني)

السلام والبركة التي حلّت على جوق الرسل تكون حالة على أعز الأصدقاء والمحبين القس باطيشتا. الرب يبارك عليك. في كل أيام حياتك ويخلصك في الدنيا والآخرة. ويكون حظك في ملكوته السماوية بصلوات العذراء الطاهرة والآباء القديسين آمين.

وسبب تسطيرها كثرة الأشواق إلى رؤياك السعيد الله يروينا وجهك بخير وعافية آمين...

برزت من دير سيّدة قنّوبين
نهار عيد البشارة ١٥٨٥». [3]

---

(١) لويس شيخو: **الطائفة المارونيّة والرهبانيّة اليسوعيّة في القرنين السادس عشر والسابع عشر**، ص ٨١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٢ ـ ٨٣.

٤٠١ ـ رسالة البطريرك يوسف التيان[١] للقس أرسانيوس القرداحي وكيله في رومية في ٥ حزيران ١٨٠٣ :

«البركة الرسولية تشمل حضرة ولدنا العزيز القس ارسانيوس الاكرم باركه الرب آمين.

أولاً مزيد الأشواق لرؤياكم بكل خير والثاني الموجب لتحرير الاحرف هو أولاً السؤال عن احوالكم نسأله تعالى تكونوا دايماً بغاية الصحة والتوفيق: ثم اننا قد وقفنا على مكتوبكم لحضرة ولدنا رئيسكم العام المحترم بتاريخه اول نيسان سنته ومنه فهمنا وصول جميع كتاباتنا ليدكم وقوي انسرينا من ذلك. إلخ . . .

الحقير
يوسف بطرس تيان
البطريرك الانطاكي»[٢]

هذه نماذج أربعة عن الرسالة المحرَّرة بقلم تلاميذ المدرسة المارونية. اخترنا ثلاثاً منها من السنة الثانية لفتح المدرسة (١٥٨٥)، والرابعة من مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٣)، لكي نرى الفرق الحاصل بين الحِقْبَتين.

تطالعنا هذه الرسائل بعادة البسملة، وإن كانت عند المسلمين «بسم الله الرحمن الرحيم»، فهي عند المسيحيِّين «بسم الآب والابن والروح القدس». وكتابة «بسم»، بحذف الألف، مماثلة للكتابة القرآنية لهذه العبارة. ولا غرابة في كثرة التعابير الدينية الواردة على لسان التلاميذ. فالمدرسة المارونيّة، أساساً، مدرسة إكليريكيّة.

---

(١) اسمه الحقيقي مفوّض بن سلوم التيان من بيروت. أرسله البطريرك يوسف اسطفان تلميذاً الى مدرسة الموارنة في رومية عام ١٧٧٣. صار بطريركاً في ٢٨ نيسان ١٧٩٦، وتنازل عن البطريركية عام ١٨٠٩. توفي في دير قنّوبين في ٢٠ شباط ١٨٢٠ (مجلّة المنارة، السنة الثامنة، ١٩٣٧، ص ٩ ـ ١٤).

(٢) مجلة المنارة، السنة الثامنة، ١٩٣٧، ص ١٦ ـ ١٧.

وامتهان النفس، وتعفير الجباه على الأعتاب، واستعمال ألفاظ التعظيم والتفخيم كلُّ ذلك مستمدّ من الآداب السلطانيّة المعروفة في ذاك الزمان.

وتلفت القارىء كثرة الاصطلاحات المكرّرة بعيداً عن العفويّة في موضوعٍ يفترض وجودها. وربّما تبدّت شدّة الخضوع للسلطات العليا خضوعاً في كلّ الميادين، ومنها ميدان الكتابة. ومن الصعب، إن لم يكن مستحيلاً، مصادفة الشخصيّة الأدبيّة في كتابات تلك العصور.

يقول الكاتب: «أقبل الأرض وأحني بالهامة الخاطئة بين الأيادي الطاهرات». هل نعدّ ذلك خبثاً اجتماعيًّا؟ إنّ من أكثر المقاييس النقديّة خطأً ما يحكم منها على التراث القديم بذهنيّه العصر الحاضر ومفاهيمه. لذلك، علينا أن لا نرى في تعابير التلاميذ سوى اتّباعٍ للسلف، وللقاعدة الكتابيّة التي يُخطّئُ من يهملها أو يشذّ عنها.

ويتابع الكاتب: «وتاج رأسي وقرة عيني ومهجة فؤادي» وهي أوصاف معهودة تحدوها الحماسة والتقيّد الشديد بالفرض الواجب من الاحترام.

أمّا الأخطاء اللغويّة، فليست من هذا القبيل: فلا يُحنى بالهامه وإنّما تُحنى الهامة. والأيادي جمع يد بمعنى الفضل، أمّا جمع يد بمعنى العضو المعروف فيكون على أيدٍ. وكأنّما في استعمال طاهرات، نقيّات، زكيّات، نفحة تركيّة. واستعمال يروينا تكراراً بدل يرينا خطأ لغويّ بارز.

ولا حاجة الى البرهان على تأثّر كتابات الموارنة، آنذاك، بالسريانيّة، فقد كانت السريانيّة لغة أساسيّة لديهم، وإن لم تبق الوحيدة. وأكثر كتاباتهم بالحرف الكرشوني. وكثيراً ما اختلطت العربيّة والسريانيّة خطًّا ونهجاً عندهم؛ فإنّ «ترويسة» رسالة البطريرك سركيس الرِّزّي (النموذج رقم ٣) هي بالكرشوني، وسائر الرسالة بالحرف العربيّ. والتوكّؤ على مزامير داود النبيّ ظاهر في النموذج الثاني: «كما يتوق الأيل الى ينبوع المياه. إلخ...».

وإذا انتقلنا مع النموذج الرابع الى مطلع القرن التاسع عشر، فلا نرى كبير اختلاف أو تطوّر في الأسلوب والنمط، فلا تشذيب للأسلوب، كاستعمال

أوّلاً وأوّلاً متتاليين للتقسيم. ولا اعتناء بصحّة اللغة كقوله «وقوي انسرينا من ذلك». ولا يصدمنا هذا الواقع إذا علمنا أنّ النهضة العربيّة الحقيقيّة تأخّرت الى ما بعد منتصف القرن الماضي. وكانت الكتابة العربيّة، فيما سُمّي عصر الانحطاط، تتقدّم ببطء واضطراب، وبقفزات غير رتيبة، بل قليلة متعثّرة.

٢ ـ الترجمة

من أهمّ أعمال الترجمة التي تعهّدها خرّيجو المدرسة المارونيّة ترجمة الكتاب المقدّس في عهديه القديم والجديد في باريس. وهي الترجمة المعروفة بالبوليغلوت Polyglotte(١). عدا الترجمات المفيدة في مختلف العلوم والفنون.

ومن أشهر مترجميهم يوسف شمعون السمعاني (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨) الذي احتلّ وظيفة ترجمان في مكتبة الفاتيكان عام ١٧١٠.

وأكتفي هٰهنا بنصّين مترجَمين متوخّياً فيهما تنوّعاً بل تطوّراً في اللغة والأسلوب:

١٠٢ ـ ميزان الزمان، للأب نيرومبرغ اليسوعيّ، وعنوانه بالإيطاليّة:

La diferencia entre lo temporal y lo eterno

ترجمة يوسف بن جرجس الحلبيّ المارونيّ (حجم صغير)

«المقالة الأولى

في التمييز ما بين الزمني والابدي

الفصل الأول

في الزمني والأبدي

إنه ليجب علينا أولاً أن نتقدم بمعرفة مقدار الاشيا ليسهل علينا استعمالها... وإننا عايشون في الزمنيات بجهل مفرط فكيف إذاً يمكننا ان

---

(١) نفّذها جبرائيل الصهيوني ونصر الله شلق وإبراهيم الحاقلاني. (ناصر الجميّل في مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٢٣٨).

نتطلع على الأمور الأخروية ونحن لا نقدر ان ندرك الأمور المتصرفين بها. إلخ . . .»

وكُتبت مقدمة الكتاب بأسلوب مسجّع وبغير توقيع:

«بسم الأب والابن والروح القدس الاله الواحد

الحمد لله الذي جعل الزمان ميدان الانسان. وصيّر العمر ميزان الزمان. إلخ . . .».

٢٠٢ ـ كتاب حوادث الاعتراف ـ تأليف الأب خريسطوفورس اليسوعي. ترجمه من التليانية الى العربية سنة ١٧٢٣ ابراهيم جلوان السمراني الايبودياكن الماروني ربيب المدارس الرومانية العظيمة. منسوخ ومعرّب بخط جبرائيل فرحات (المطران جرمانوس) في دير مار اليشع في الوادي المقدس في اليوم السادس من نيسان ١٧٢٤.

«بسم الأب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين

التقديم:

الحمد لله الذي أنار بصايرنا بوصاياه الالهية. وكشف لنا عن حقايق الطرق الملكوتية بالتوبة السرية. وطهر انفسنا باسرار كنيسته السرية. بما اقتنته من التحرز في نقاوة الذمة والنية. . . برية من كل قصاص استحقته بالعذابات الأبدية. وليس لها في ذلك مزية شرعية. لو لم تتمسك بشفاعة خير البرية ومعدن طهارة البكارة الكلية. أي مريم العذرا والدة الهنا مخلص الأمة البشرية. فلها نقدم سلاماً واكراما ومجدا بكرة وعشية».

المقدمة الأولى:

«إعلم ان هذا الكتاب الصغير الحجم قد طبع اولا في بلد اسبانيا. وقدم الى رُوَسا كهنة تلك البلاد. ولكن يلزم الان ان يقدم الى روسا كهنة العالم المسيحيين كلهم. والسبب في تاليف هذا المولف المختصر هو ما قالته القديسة ترازيا الكرملية في احدى رسايلها: فليوعظ ضد الاعترافات الغير المفعولة جيدا. لأنه من جملة الوسايط التي يستعملها الشيطان ليربح نفوسا كثيرة الى

جهنم هي الاعترافات النفافية. إلخ . . .».

تبدو الترجمة الأولى كثيرة الالتزام بنهج التعبير الأجنبي، وغير مهتمّة بفصاحة اللغة العربيّة وأصولها. إلّا أنّها التزمت التجانس اللفظيّ في العنوان على طريقة أهل العصر، ففسّرت العنوان الإيطاليّ وهو بمعنى «الفارق بين الزمنيّ والأبديّ» بميزان الزمان. وتبنّت المصطلحات العربيّة القديمة في استعمالها لفظتي مقالة وفصل.

أمّا مقدمة الترجمة فمكتوبة بأسلوب عربيّ مسجّع يختلف كلّ الاختلاف عن الترجمة نفسها. وسبب ذلك، بنظرنا، ليس لأنّه أُنشىء أصلاً بالعربيّة، وإنّما لكونه لكاتب آخر، ربّما كان الناسخ المتأخّر زمناً عن المترجم. وكثيراً ما كان النسّاخ يقدّمون للكتب التي ينسخونها، كما نرى في النموذج الثاني الذي قدّم له جبرائيل فرحات.

ولم أتردّد في اختيار النموذج الثاني الذي تدخّل جبرائيل فرحات في تعريبه، لأنّ فرحات من مدرسة حلب الشهيرة المتدرّجة من مدرسة رومية. وأستاذ فرحات وغيره من المارونيّين الحلبيّين هو بطرس التولاوي خرّيج المدرسة المارونيّة الذي مكث مدة طويلة في المدينة (١٦٨٥ ـ ١٧٤٦)[١].

أسلوب النموذج الثاني متطوّر، ولا شكّ، والتقديم فيه لجبرائيل فرحات يسير على طريقة السجع التقليديّة، ويتأثّر في بعض نواحيه التعبير القرآني إذ يقول: «فلها نقدم سلاماً وإكراماً ومجداً بكرةً وعشيّة». وهو دليل على أثر القرآن في تطوير لغة المسيحيّين وإكسابها البلاغة والمتانة اللائقتين في التعبير.

أمّا ترجمة الكتاب، فتبدأ في المقدمة الأولى، ونرى فيها لغةً عربيّة سهلة الألفاظ، مخفّفة من كل ما يعوق اللفظ كالهمز والتضعيف. ونلمح فيها أسلوب المطران جرمانوس فرحات في استعمال بعض التعابير التي لفت إليها في مؤلّفه اللغويّ «بحث المطالب» كإدخال أل على غير في قوله «الغير المفعولة»، وهو

---

(١) نبيل الحاج: **الخوري بطرس التولاوي وأثره في النهضة**، في مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٢٩١ ـ ٣١٨.

تعبير عربيّ صحيح. ودرج فرحات على تحبير مقدّمات كثيرٍ من كتب المدرسة المارونيّة، وتصحيحها، ونسخها. فهل يكون هو نفسه كاتب مقدّمة النموذج الأوّل المسجّعة؟

٣ ـ علم الكلام والمنطق

أقصد بعلم الكلام ما أجمع الفقهاء على تحديده بالدفاع عن الدين بالحجج المنطقيّة. وهو، بذلك، يشكّل مع علم المنطق موضوعاً واحداً.

لا غرو في أن كثرة لجوء الموارنه إلى هذا العلم، يعود إلى أنّ تاريخهم القديم حافل بالاتّهامات المغرضة التي جرّت عليهم اضطهاداً واسعاً متلاحقاً، تمكّنوا من صدّه بمعاونة رؤساء الكنيسة وموفديهم صليبيّين وقصاداً رسولّيين.

اخترت لعلم الكلام نموذجين، ونموذجاً واحداً لعلم المنطق:

١٠٣ ـ كتاب ردّ على الهراطقة (في جزأين. نسخ عن نسخة دير حراش عام ١٩٠٣). تأليف المطران جرجس بن يمين الايسوعي على يد فرنسيس صلعون ميخائيل الغزيري واسطفان عواد تلاميذ مدرسة الموارنة المباركة سنة ١٧٣٧.

«مقالة أولى
الفصل الأول

يتضمّن شرحاً ضد بدعة اوطيخا وتباعه يوضح بان في المسيح توجد طبيعتان كاملتان.

أولاً يجب علينا نعلم بما زعمه اوطيخا الذي هو رأس هذه البدعة. فزعم اذاً ان في المسيح بعد التجسد توجد طبيعة واحدة فقط. وسبب ذلك عناداً في نسطور الذي افترا قائلاً ان كان توجد طبيعتان في المسيح يكونا مسيحان ولا مسيح واحد. لذلك قال اوطيخا ان في المسيح طبيعة واحدة لا غير. واقنوم واحد. وظن ان من يقرّ في طبيعتان يجب عليه يقر في مسيحان هكذا زعم نسطور. إلخ . . .».

٢٠٣ ـ الدر المنظوم رداً على المسائل والأجوبة الممضاة باسم البطريرك مكسيموس مظلوم (تأليف البطريرك بولس مسعد، ١٨٥٤ ـ ١٨٩٠)

«المقدمة في السبب الداعي لهذا الرد

أما بعد فيقول جماعة المحامين عن الحق اننا عثرنا الان على كريريسة مؤرخة في ٢٥ أيار سنة الف وثمانماية واربع واربعين تحت امضاء غبطة السيد مكسيموس مظلوم بطريرك الملكيين الكاثوليكيين الكلي الطوبى. وهي محتوية على ثلاثة سؤالات مردفة باجوبة ثلاثة ونتيجة: مضمونها ان الطايفة والطقس اليونانيين هما الاول في المشرق بناءً على أن المسيح رتب شريعته باللغة اليونانية وانه كان ينذر بها ورسله كذلك وان الليتورجيّات المعبر عنها بنوافير القداس قد ترتبت بهذه اللغة اليونانية لأنها كانت عمومية عند جميع القبائل وانه من ثمه فجميع الطوايف الشرقية المسيحية الموجودة الآن هي منشقة عن الطايفة اليونانية وغير ذلك من التلفيقات كما يأتي بيانه. فعندما امعنا النظر في نوع هذه السؤالات واجوبتها فلم يكن يخال في فكرنا ان هذا السيد المغبوط يُظهر للوجود مثل هذه التلفيقات المشحونة تناقضاً واموراً لا اصل لها ولا اساس صوابيّ ولومهما كان له من الغايات لما هو مسموع عنه من التجمل بالعلم والخبرة ولكن من جهة نرى ان هذه الكريريسة ممضاة باسمه. ولذاكم السبب قد اضحينا بدون شك ويقين في انها تكون منتسبة اليه. إلخ . . .».

٣٠٣ ـ الايساغوجي اي مدخل المنطق للقس بطرس التولاني الماروني الكاروز في محروسة حلب ابرزه في ١٦ ايلول في سنة ١٦٨٨ مسيحية[١].

«فاتحة كتاب الايساغوجي والمنطق

الحمدلله الذي خلق الانسان وميزه من كافة انواع الحيوان بالنفس الناطقة العقلية الموهوبة له من نفخته الالهيّة. وحدّ له مناهج وسبل لاكتساب الفضايل الربانية. وعلمه دلايل مدلولات ترشده الى الملكوت السمويّه. . . بما أنه الكريم المنّان والرحيم الرحمن. وبعده فيقول الاب الفاضل والفيلسوف العالم

(١) المخطوطة تعود الى سنة ١٨٤٩، كما هو مذكور في آخرها.

العامل الأب الخوري بطرس بن بطرس التولاني ايكونومس الملّة المارونية بمدينة حلب والمصباح المشعشع في الأصقاع الشرقية الغير المحتجب. . .

بسم الله الخالق الحيّ الناطق إياه نحمد وبه نستعين.

في الايساغوجي أي مدخل المنطق.

إنه لما كانت سعادة الانسان من حيث هو ناطق موقوفة على معرفة الحق والخير. أمّا الحق لذاته. أمّا الخير فللعمل به. والرويّة الانسانية قد تعتريها الزيغ عن الصواب والميل الى الخطأ. فدعت الحاجة الى اعداد قانون صناعي يعصم الذهن من الغلط فيها. . . فنقول إن هذا القانون الصناعي هو المنطق والحاجة اليه تأدي الذهن لدرك المجهولات من المعقولات وترتيب صورها وموادها. . .».

ترى في النموذج الأول التقسيم نفسه الذي درج عليه تلاميذ المدرسة إلى مقالات وفصول. وقد حرصتُ على انتقائه في الرد على أوطيخا[1]، لأنّ مقارعة هذا المبتدع كان هاجس الكثيرين من الموارنة، وقد واجه مذهبهم بعداوة شرسة.

وتصادف في هذا النص اضطراباً لغويًّا ومعنويًّا بحيث يصعب الجزم بحكم المؤلِّف على أوطيخا: أهو يوافق نِسطور[2] أم يخالفه؟ ما معنى قوله «وسبب ذلك عناداً في نسطور»؟ أيعني معاندته لنسطور أي مخالفته أم يعني مجاراته؟ يُخيّل للقارىء أن المقصود مجاراة أُوطيخا لنسطور، ولكن، لا يلبث النَصّ أن يشير إلى قول أوطيخا بأقنوم واحد في المسيح، بينما المأثور عن نسطور اعتقاده بأقنومين فيه. فلغة هذا النصّ صورة لما يجرّه على المؤرّخ ضعف تعبيره وأخطاؤه اللغويّة.

---

(١) أوطيخا Eutychès (٣٨٨ ـ بعد ٤٥٤): راهب يوناني عاش في القسطنطينية. قال بوحدة الطبيعة في المسيح (مونوفيزيّة). حرّمه المجمع الخلقيدوني (٤٥١). اضطهد الموارنة وافترى عليهم افتراءات جمّة.

(٢) نِسطور Nestorius (نحو ٣٨٠ ـ ٤٥١): ولد في قيصريّة سورية. بطريرك القسطنطينيّة (٤٢٨). قال بأقنومين في المسيح، وأنكر على مريم لقب أم الله. حرّمه مجمع أفسس (٤٣١).

النموذج الثاني، الذي كتب بعد الأول بأكثر من مئة عام، أرقى منه تعبيراً، وإن بقي فيه اضطراب في الأسلوب، واجترار، وحماسة، وبعدٌ عن الموضوعيّة في النقاش. وربّما تعدّت الموضوعيّة المفاهيم السائدة قبل منتصف القرن الماضي.

يتحدّث مطلع النصّ عن «جماعة المحامين عن الحق». ثم يعود المؤلِّف فيلتفت الى نفسه ويقول: «فعندما أمعنا النظر»، والصحيح، لغوياً، أنعمنا النظر. وربما كان هذا المطلع جرياً على تقليد متَّبَع في افتتاح المناظرات.

وبعد أن يذكر البطريرك مسعد خصمه باحترام في قوله: «غبطة السيد مكسيموس مظلوم بطريرك المِلكيّين الكاثوليكيّين الكلّي الطوبى»، يعود فيتّهمه «بالتلفيقات المشحونة تناقضاً وأموراً لا أصل لها ولا أساس صوابيّ». وكأنّه عندما ذكر ادعاءاته أخذته الحماسة، فخرج عن طوره، وتخطّى الاعتدال الذي بدأ به مقدّمته.

وتجدر الإشارة الى وقوع البطريرك مسعد في خطأ تعبيري كاد يعكس قصده حينما قال: «بدون شك ويقين»، بدل أن يقول: «بدون شك وعلى يقين».

وهكذا، نستنتج أنّ المناظرات الموضوعيّة، البعيدة عن الحماسة والطعن، لم يكن قد تأذّن عهدها بعد. أمّا اللغة فما زالت تبحث عن صفائها.

تبدأ فاتحة النموذج الثالث على الطريقة العربيّة المتَّبعة في افتتاح الكتب بلغة لا تخلو من تشذيب وتنقيح، يسيطر عليها النفس الدينيّ المأخوذ من العهدين القديم (نفخته الآلهية) والجديد (السير على درب المسيح). وتستمدّ أحياناً روح الاسلام العربيّ (بما أنه الكريم المنان والرحيم الرحمن).

ويأتي وصف المؤلّف وتبجيله ليرجّح أنّ الفاتحة ليست من صنيعه. ويلفت فيها استعمال ايكونومس اليونانيّة بدل رئيس الكهنة، دالّة على شدّة تأثّر الموارنة بالبيئة الغربيّة التي انتقلوا اليها، ويظهر أثر الأفلاطونيّة في تعابير من أمثال «الغير المحتجب».

وقد تضمنت المقالة الأولى من الكتاب نمطاً تعبيريًا يذكّر بفاتحة القرآن (بسم الله الخالق الحي الناطق إياه نحمد وبه نستعين).

والتفصيل المنطقي في الكتاب واضح على الاجمال، يضطرب أحياناً من حيث اللغة. يستعمل الكاتب تارة الفاء في جواب أمّا، ويهملها تارة أخرى. ويستعمل الفاء في جواب لمّا بغير مسوّغ. ومع ذلك، تبقى اللغة على شيء من التطوّر، حريصةً على توازن الجمل (والرواية الانسانية قد يعتريها الزيغ عن الصواب والميل الى الخطأ)، إلاّ أنّها لا تخلو من الأخطاء الإملائيّة كقوله «تأدي الذهن لدرك المجهولات»، واضعاً الهمزة على الألف بدل الواو.

وعدا تقسيم كتاب الايساغوجي الى مقدمة وأبحاث وفصول، نشاهد فيه طريقة حديثة في التأليف كأن يثبت المؤلّف في أوّله «بيان الأحرف المختصرات في نفس هذا الكتاب» (ظه: ظاهرة ـ بط: باطل ـ مح: محال ـ إلخ...). والكتاب مرقّم من ١ الى ٢٦٦، يتقدّمه فهرس المحتويات، كما هي الحال في أيّامنا.

٤ ـ التربية والتعليم

التربية والتعليم من المهمّات الأساسيّة التي أُنشئت من أجلها مدرسة رومية. أرادها البطاركة والحبر الأعظم لتعزيز الإيمان في نفوس الموارنة، وبنائه على الحقائق الروحيّة، بعيداً عن الكهانة والخرافات. كما أرادوها ليجعلوا من الموارنة منائر علم ومعرفة، ينشرونها في الناس، ومعها الأخلاق، ومبادىء الإيمان القويم.

يعود التلاميذ إلى بلادهم، فيبنون المدارس، ويحافظون على الاتّصال الثقافيّ والدينيّ بين لبنان والغرب، ورومية بنوع خاص. فكان لهم دور الريادة والطليعة في هذا المجال. وأسهموا إسهاماً فعّالاً، ولا يزالون، في نشر الثقافة والعلم في مختلف أنحاء لبنان. وكثيراً ما أمّ مدارسهم تلاميذ من سائر الطوائف اللبنانية. وقد اصطفينا لهم نموذجين في هذه المادة:

١٠٤ ـ كتاب المعلم والتلميذ (خليط من الكتابتين الكرشونيّة والعربيّة) تأليف المطران اسحاق الشدراوي الماروني (١٥٩٠ ـ ١٦٦٣)

بخط الخوري جبرايل خادم كفرحي في بلاد البترون، وهو من البترون ويدعى الخوري جبرايل ضو كتبه في شباط ١٨٢٦.

«كنت قلت لك يا معلم ان في القيامة الرجال يقومون رجال والنسا يقومون نسا قاصد الآن اعرف منك ان كان يروحون للسما رجال قدر مايروح نسا ام اكثر من النسا. . معلم اجيب واقول لك ايها التلميذ العزيز ان هذا الامر هو موضوع في سلطان وعلم الله تعالى وحده الذي الى يومنا هذا ما اجهره الى احد» (ص ٨٧).

وفي مكان آخر يخبر المعلِّمُ التلميذَ عن المدن التي زارها:

«ومنها لمدينة ريكاناتي ومنها لمدينة لوريتو وهناك هو بيت ستنا مريم العذرا. وفي هذه المدينة مكت (كذا) (أي مكثت) اربعة اشهر الشتى وذلك بسبب شدة الثلج والبرد الذي صار بتلك السنة. ولله الحمد خمسة امرار قدمت لهذه الموضع المباركت وحضيت في بركته وشفاعته. إلخ. . .» (ص ٩٢).

٢٠٤ - تفسير واسع على التعليم المسيحي الذي صنّفه الاب الكردينال بالرمينو (٣٣٥ صفحة صغيرة).

مفسّر ومطبوع بامر قدس سيدنا البابا اوربانوس الثامن والمجمع المقدّس الذي على نشو الأمانة وتوسيعها على يد خوره يوحنا الحصروني ترجمان ملك فرنسا المسيحي بلسان العربي والسرياني سنة ١٦٧١

«بسم الاب والابن وروح القدس الاله الواحد الازلي

نبتدي بايضاح تعليم قواعد ذين المسيح مهمّ لمنفعة اوليك الذين يعلّمون الاولاد وناس اخرين اميّة جهّال بنوع متكلمه بين تلميذ ومعلم مؤلّف لابينا المختار العالم الكردينال روبرطوس بللارمينو. مفسّر من لسان الافرنجي الى العربي لخوري يوحنا الحصروني الماروني بامر قدس سيدنا الطوباني بابا اوربانوس الثامن الجالس على كرسى العظمة كرسى مارى بطرس وبعناية السادات الكرديناليه المكرمين المتولين على مجمع توسيع وانتشار الايمان الحقيقي. . . (ص ٩).

أي شى هو العلم المسيحي وما هي اجزاه الخصوميه
تلميذ. فلاني اعلم انها واجبه معرفة العلم المسيحي للخلاص ارغب ان تشرح لي وتفسر ما هو هذا العلم.
معلم. العلم المسيحي هو موجز وكلام مختصر على كلّ شى علّمنا اياه السيّد المسيح حتى يرينا طريقة الخلاص.
تل. أجزاء هذا التعليم الأخصّ والاوجب كم هيّ.
مع. هي اربعة: قانون الايمان. والصلاة الربانية. والعشر وصايا. وسبعة اسرار البيعة.
تل. لاي سبب هي اربع لا زايده ولا ناقصه.
مع. لاجل ان ثلاث هي الفضايل الخاصيّة. اى الامانة والرجا والمحبة. . .».

النموذج الأوّل هو مجموعة آراء لاهوتيّة، وأخبار سياحيّة تقوم على حوار بين تلميذ ومعلّمه. وهو من تآليف القرن السابع عشر، خليط من الكتابتين الكرشونيّة والعربيّة. وهذا النمط من التأليف كان معروفاً في الغرب، وقد عرفه المشرق مع الفلاسفة المربِّين القدامى كالغزالي في رسالة «أيها الولد»، وابن طفيل في رسالته «حي بن يقظان»، وغيرهما.

تتّخذ لفظة معلِّم، هنا، معناها الأصيل. وفي نداء التلميذ «يا معلّم» شميم من مخاطبة الرسل للسيّد المسيح. وتأخذ، أحياناً، أسئلة التلميذ طابع المماحكة والتعجيز، ما يذكّر بفتاوى المسلمين الأوائل للمعضلات الناشئة عن مواقف طارئة مفاجئة. أمّا المعلّم، فيقف عاجزاً عن الجواب ويصرفه الى الله تعالى، كما كان يلجأ علماء العرب في مثل هذه الحال الى قولهم «والله أعلم». وهو موقف أقرب إلى العلم من التكهّن والإجابة العشوائية.

وفي أخبار المعلّم السياحيّة إنماء لثقافة التلميذ، وموعظة له بارتياد الأماكن المقدّسة والتبرّك بها.

وأسلوب هذا النموذج أقرب إلى العاميّة منه الى اللغة الفصيحة، ولكنّه مقبول ومحمود ممّن ينتقل إليه من السريانيّة. والفائدة فيه مخصوصة بالمعاني

الجديدة التي يفتقر اليها الساعون الى المعرفة والثقافة، والى الانتقال باللغة العربيّة من العناية باللغة والاساليب الإنشائيّة الى العناية بالموضوعات الجديدة وما ينقص الرائد منها.

النموذج الثاني مكتوب بالحرف العربيّ، ولا يتميّز بلغته وأسلوبه عن النموذج الأوّل، ما يجعلنا نستنتج أنّه كان الأسلوب اللغويّ المتّبع، آنذاك، في كتابة تلاميذ مدرسة رومية. وأسلوب مقدّمة الكتاب شبيه بأسلوب الفصول، ما يعزّز حجّتنا في تعيين الأسلوب الكتابيّ المعهود.

ونمط التأليف متشابه بين النموذجين، والأسئلة والأجوبة متتالية بين التلميذ ومعلّمه، تبتدىء من الأبسط الى الأعمق، ومن التعميم الى التفصيل. واذ كان هذا الكتاب من تأليف كردينال إيطاليّ، أمكننا القول إنّ تلاميذ مدرسة رومية أخذوا هذا النمط من التأليف عن معلّميهم الغربيّين، أكثر مما توكّأوا فيه على الكتب العربيّة القديمة.

٥ ـ القوانين والعقود

أفاد تلاميذ المدرسة المارونيّة إفادة كبيرة من أساتذتهم في تنظيم القوانين والعقود. وحملوا هذه الأساليب الى بلادهم، وهي طرائق جديدة فرضتها شؤون الحياة الحديثة بما فيها من اتّساع التعامل، وتشعّبه وتعقيده. فكان قانون مدرسة عين ورقة مثلاً نسخة عن قانون المدرسة المارونيّة الرومانيّة[١]. وما زلنا حتى اليوم نستوحي قوانيننا من الغرب، وخصوصاً من فرنسة. أليس ذلك من تأثير الموارنة الذين تميّزت كتاباتهم القانونيّة بالدقّة والوضوح والتفصيل والشمول؟

وأُثبت، من بعد، نموذجين، أحدهما في القانون والثاني في العقود:

١٠٥ ـ القوانين والرسوم الرهبانيّة، رومية ١٧٣٥، قطع وسط، عدد الصفحات ١٨٠ لاتينية و ٢٦١ عربيّة (مكتوبة بالحساب الأبجدي رس ا)، باللغة العربية (حرف كرشوني) مع ترجمة لاتينيّة (خط إبراهيم الحاقلاني).

---

(١) راجع مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٥٧ ـ ٦٦ و ٢٨٢ ـ ٢٨٧ للمقابلة بين القانونين.

«الباب الحادي عشر [صفحة ١٠٩ ـ ١١٠ (ق ط ـ ق ي)]
في الأب الروحي

أولاً: يلزم في كل دير تعيين أب روحي يتقيّد بوظيفته وهي استماع اعترافات الرهبان والاحتراص في نموّهم الروحي. . .

سادساً: وَلْيَهْتَمْ اهتماماً خصوصيًّا في تعزية المحزونين والمتضايقين ونصح الفاترين بتقديم الأدوية المناسبة لشفاء أوجاعهم وهي غالباً هذه: أن يواظبوا سِرَّي الاعتراف والقربان الأقدس. وأن يصرفوا زماناً أكثر من غيرهم في الصلاة. وأن يُقَوِّنوا ذواتهم أكثر من الآخرين ويقرأوا بعض كتب روحيّة مختصّة بعلاج دائهم وما أشبه ذلك. . .».

٢٠٥ ـ عقد إنشاء مدرسة عين ورقة سنة ١٧٨٩:

«الداعي لتحريره هو أني انا الحقير في الروسا[١] المدون اسمي بخطى وختمى اعلاه سريانياً وبذيله عربياً قد خصصت وعينت واوقفت بشور أخي المطران بولص اسطفان وابن أخي الخوري إبراهيم اسطفان ورضاهما جميع ارزاق ديرنا المعروف بمار انطونيوس عين ورقه الثابتة والغير الثابتة وكل عماره واتاته وحقوقه واستحقاقاته وكافة ما يعرف به وينسب اليه من توت وكروم واراضى مزروعة وغير مزروعة وسايقه ومواشى الى خير الطايفة العام اعني لكى يقام فيه مدرسة أولاً لتربية الاولاد بخوف الله والعبادة وحفظ طقوس رتبتنا المارونية الانطاكية المقدسة منذ حداثة سنهم ثانياً ليرتشدوا بالعلوم المقدسة اولاً النحو السرياني والعربي ثانياً الفصاحة. إلخ. . .»[٢].

لم يكتفِ المشترع في النموذج الأوّل بكتابته باللغة العربيّة، بل، لمزيد من الدقّة، وضع الى جانبها ترجمة لاتينيّة. وهو أمر متّبع في كثير من القوانين والاتّفاقات العامة.

---

(١) البطريرك يوسف اسطفان (١٧٦٦ ـ ١٧٩٣).
(٢) مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٩. وفي آخر العقد واحد وخمسون ختماً وتوقيعاً للبطريرك يوسف اسطفان والخوارنة والمشايخ وأصحاب الحقوق.

التقسيم واضح، واللغة سهلة قليلة الاضطراب والخطأ. وهو أمر طبيعي إذ إنّ النصوص القانونيّة، بحكم توجّهها واستعمالها، لا تقبل الزيغ والإبهام. ومع ذلك، يبقى الأسلوب بحاجة إلى كثير من العناية والتصويب. فابتداء النص «يلزم في كل دير تعيين» هو أسلوب ركيك. وأن المصدرية واجبة قبل فعل يتقيّد. والتعبير «الاحتراص في نموّهم» ضعيف. وحرف الجر «على» واجب بعد «يواظبوا». والأفصح تعريف كلمة كتب في قوله «بعض كتب روحيّة».

وفي النموذج الثاني حرص البطريرك يوسف اسطفان على تدوين اسمه باللغتين العربيّة والسريانيّة، ووضع ختمه في ترويسة العقد وفي نهايته زيادةً في الدقّة والترقّب. وأكّد تخصيصه أرزاق الدير لخير الطايفة العام بفعلين بمعناه (خصّصت وعيّنت وأوقفت) منعاً لكل مراجعة او التباس. وحرص على ذكر مشورة أخيه وابن أخيه لكي لا يترك لهما مجالاً للادّعاء بحقوقهما في يوم من الأيّام. وفصّل ما أوقفه للمدرسة تفصيلاً كاملاً بحيث لا يُبقي مجالاً لأيّ استثناء.

ولم يفته إثبات ما أُنشئت المدرسة من أجله بالتفصيل وكأنّه يضع لها قانوناً في نصّ العقد نفسه، لكي لا يحصل في المستقبل أيّ سوء استعمال، وأيّ استغلال منافٍ لعلّةِ إنشائها.

وفي آخر العقد واحد وخمسون ختماً وتوقيعاً للبطريرك والخوارنة والمشايخ وأصحاب الحقوق تقدّم هي الأخرى دليلاً قاطعاً على تطوّر النصوص القانونيّة وإحاطتها بكل القيود والتحفّظات التي فرضتها العلوم الغربيّة الحديثة، بعيدا عن المعاملات الطبيعيّة المرتجلة التي كان يكتفي بها الناس في تجمّعاتهم البسيطة الماضية.

٦ ـ التاريخ

قدّم جرجي زيدان للتاريخ والمؤرّخين في العصر العثماني بقوله: «أصاب التاريخ في هذا العصر ما أصاب سائر الآداب من الضعف والركاكة». وذكر من تلاميذ المدرسة المارونيّة يوسف شمعون السمعاني (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨) بمؤلّفيه «المكتبة الشرقيّة» التي طبعت برومية في أربعة مجلّدات

(١٧١٩ ـ ١٧٢٨). و «أصل الرهبان في لبنان» الذي طبع في المدينة نفسها سنة ١٨٤١[١].

لقد عدّ زيدان التاريخ في قوله السالف من الموضوعات الأدبيّة وهو لكذلك عندما يذكر فيه أمثال طاش كبري زاده (١٤٩٥ ـ ١٥٦١) صاحب «الشقائق النعمانيّة في علماء الدولة العثمانيّة» و «مفتاح السعادة ومصباح السيادة»؛ وحاجي خليفة (١٦٠٨ ـ ١٦٥٧) صاحب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»[٢].

وكان التاريخ من الموضوعات الموفورة الحظّ الكثيرة الانتاج، تندرج تحته شعب ثلاث: سرد الأحداث، وتاريخ المدن، وسير الرجال[٣]. ولكنّ قيام المدرسة المارونيّة في رومية، وهي من الغرب في الصميم، كياناً وحضارةً، مهّد لتلاميذها الإفادة من المناهج الغربيّة القائمة على الموضوعيّة، والتبحّر، والربط، والتحليل، والاستنتاج، وإن بقي لمؤرّخيهم صلة دائمة بمهدهم المشرقيّ[٤].

وقد اخترت نموذجين، أحدهما لمؤرّخ هاو، إذا صحّ التعبير، هو إبراهيم الحاقلاني (١٦٠٥ ـ ١٦٦٤)، والثاني لمؤرّخ محترف هو البطريرك اسطفان الدويهي (١٦٣٠ ـ ١٧٠٤).

١٠٦ ـ نص إبراهيم الحاقلاني[٥]

«في سنة الف ستمايه وعشرين يومين بعد عيد الغطاس وصلنا الى مدينة روميه نحن الحقيرين مع الاب النقي الشريف الخوري ابراهيم من قرية

(١) تاريخ آداب اللغة العربية، ٢/٣٠٦ و ٣٢١ ـ ٣٢٢.
(٢) المرجع نفسه، ٢/٣٣١ ـ ٣٣٣.
(٣) أسامة عانوتي، الحركة الأدبية في بلاد الشام، ص ١٩٧.
(٤) راجع دراسة للدكتور الياس القطّار بعنوان: أثر الغرب في منهجيّة وفكر الدويهي على صعيد كتابة التاريخ، في مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ١٢٧ ـ ١٣٨.
(٥) النص بحوزة الأب ناصر الجميّل مترجم الى الفرنسيّة في كتابه *Les Echanges Culturels entre les maronites et l'Europe*, pp. 62 - 63.

عينتورين ومع جوان بطشتا الافرانجي وكنا ستة اي يعقوب السرعلاني وهدا بعد ستة سنين صار ايسوعي وبعد شهر خرج وبعد علاج كثير رجع للمدرسة ووقف حول ستة اشهر ورجع للبلاد وصار له محن في البندقية. . . وسنة الف وستمايه وخمسه وتلاتين راس السنه والشهر المطران ايسمعان الشدراوي وجاب معه اولاده اتنينهو ودخلوا الى المدرسه الى الى مدرسه الموارنه في مدينه روميه المعظمة. الخ. . .».

٢٠٦ ـ نص البطريرك اسطفان الدويهي[١]

«انشاء مدرسة حوقا والبطريرك يوحنا مخلوف. تهنئة البابا اوربانوس وجوابه للسيد البطريرك. الاسقف حنا الحصروني:

وفيها (أي السنة المذكورة) اقام البطريرك يحنا مدرسة لعلم الاولاد في دير سيدة حوقا ليتأدبوا بها الاولاد الذين يدخلون الى مدرسة رومية والذين يعاودون منها. وعندما تسلّم تدبير الكرسي الروماني البابا اروبانوس الثامن، ارسل له البطرك مكاتيب التهنئة مع القس حنا ابن قورياقوس الحصروني المعروف من بيت سندوق (صندوق) الذي مع القس جبرايل ابن صهيون الهدناني ضبط ترجمانية اللغات الشرقية عند حضرة سلطان فرنسا. فترحّب به قدس البابا وبعث معه للبطرك يحنا تاجاً جميل وكتباً وعداد لأجل خدمة الاسرار المقدسة ورسالة يمدح بها ديانة الملة المارونية، ويتشكر بها من غيرة البطرك في بنيان المدرسة في دور حوقا لأجل تعليم الاولاد، وعيّن لها علوفة سنوية».

النصّ الأوّل إخبار بأمور شخصيّة سجّل فيه إبراهيم الحاقلاني خبر ذهابه وخمسة رفقاء له الى رومية، ومصير كل منهم.

لغة الحاقلاني عربيّة، وإن خرجت عنها متأثّرة بالعاميّة اللبنانيّة. إنّها لغة الحديث مطوّعة للقلم بكل بساطة، بعيداً عن هاجس التنميق والتزويق. إنّها لغة مسيحيّ مارونيّ سريانيّ غير متدرّب بلغة القرآن نموذج المسلم الأرقى، خصوصاً في تلك الأيّام.

(١) تاريخ الأزمنة، ص ٤٩٢.

والمخطوطة التي أخذت عنها هذا المقطع تتضمّن حواشي سريانيّة أو كرشونيّة قويمة على الورقة الأولى ومقلوبة على الثانية، وليس فيها محو، أو شطب، او تصحيح في الكتابة، ما يدلّ على كتابة فوريّة بيد جامدة، او إنها كتابة منقولة بغير رويّة او تشذيب. فإنّ الى، مثلاً، تتتابع مرّتين في قوله «الى الى مدرسه الموارنه».

ليس في مخطوطة الحاقلاني من التاريخ سوى السرد الخبري، والتفصيل، والدقّة في تعيين التواريخ. وهي تفيدنا، اليوم، في معرفة بعض شؤون تلاميذ المدرسة المارونيّة، وما قاسوه في ذهابهم، وإيابهم، ومكوثهم في البلاد الغريبة، كما تفيدنا، بلا شك، في معرفة بعض أساليب الكتابة آنذاك، ما يؤيّد حكم جرجي زيدان عليها بالضعف والركاكة، وذلك نسبةً إلى القواعد العربيّة الثابتة. ونحن نرى فيها فائدة بالكتابة والتدوين في زمانٍ كانت الأميّة متفشّية، عندنا، بين أكثر الناس.

ولا يختلف نصّ البطريرك إسطفان الدويهي اختلافاً كبيراً من الناحية اللغويّة عن نصّ الحاقلاني. إلاّ أنّنا، ههنا، إزاء مؤرّخ محترف، يؤرّخ حدثاً مهمًّا في تاريخ التربية اللبنانية. إنّه حدث مختار، معروف الفائدة. ولا ننتظرنّ من الدويهي تدرّجاً يصل الى التأريخ الحديث بكل عدّته، ومناهجه، ومفاهيمه. إنّه ما زال من الكتّاب الانسانيّين الذين لم يبلغ التاريخ عندهم مرتبة العلم الخالص. إنّه يتوقّف بمهابة واحترام امام «تهنئة البابا اوربانوس وجوابه للسيد البطريرك».

إنّ علاقة البابا بالموارنة وبطريركهم على الأخصّ كانت موضع اهتمام، وربّما شغف، من قبل رؤساء الموارنة وكتّابهم منذ عهد قديم كانت المراسلات والاتصالات فيه لشكوى اضطهاد، او ردّ تهمة، أو دليلاً على أنّ المارونيّة مذهب كاثوليكيّ لا يرقى اليه الشكّ. فهديّة البابا ترتدي طابعاً خاصاً عند رأس الطائفة المارونيّة.

ونصّ اسطفان الدويهي مكثّف بالأخبار المهمّة: فضلاً عن إنشاء مدرسة حَوقا (١٦٢٤) وهدفها، نعرف منه أنّ جبرائيل الصهيوني الاهدني كان ترجمان

اللغات الشرقيّة لدى ملك فرنسة، وأنّ البابا أثنى على المذهب المارونيّ، وأعان مدرسة حَوقا إعانةً مادّيّة.

ومع وضوح الدويهي وبساطة تعبيره، نجد عنده، أحياناً، تعقيداً في التعبير، إذ يستعمل جملاً كقوله: «وعندما تسلم. . . حتّى سلطان فرنسا».

ولا نحاسب الكاتب حساباً عسيراً على أخطاء اللغة، وقد صرف اهتمامه الى المعنى، وكتب كتابه، أصلاً، بالحرف الكرشوني. ولا شكّ في أنّ الكتابة السريانيّة، وما تعلّمه تلاميذ المدرسة المارونيّة من اللغات الأجنبيّة، أثّر في لسانهم العربيّ، ومنعهم من التفرّد بالعربيّة، والاقتصار عليها، وممارستها قراءةً وكتابةً وأصولاً. وما فتىء المجتمع المارونيّ، يومذاك، يرى في اللغة العربيّة الفصيحة لغة غريبة على لسانه، بعيدة عن سليقته، وعن دينه، وعن مصطلحات بيئته القرويّة وأعرافها.

ومع ذلك، فالانطلاقة المارونيّة العفويّة في التعبير أسهمت إسهاماً فعّالاً في تخفيف اللغة العربيّة من أثقالها البيانيّة البديعيّة، ووجّهتها نحو الأصالة الذاتيّة والحريّة المطلقة المستمدّة من طبيعة الجبل اللبنانيّ، وبساطة عيشه.

٧ ـ الشعر

لم يغزر الشعر العربيّ على ألسنة تلاميذ المدرسة المارونيّة كما غزر النثر، لأنّ الشعر ينطلق من الوجدان بغير تكلّف وافتعال، بل هو يفور فوراناً حاملاً معه تصاريف المعاناة. ووجدان الموارنة في بدء نهضتهم كان وجداناً سريانياً متّصلاً بلغتهم الأم اي اللغة اللبنانيّة اليوميّة التي انطلقت من السريانيّة الى خليط عربيّ سريانيّ، الى عربيّة متأثّرة بالسريانيّة.

لم يرجعوا بشعرهم الى الخليل بن أحمد، كما لم يرجعوا بلغتهم الى سيبويه. كان في ضميرهم مار أفرام السريانيّ، وإن تعدّوه في الزمان الماضي، فإلى مزامير داود ورؤيا يوحنّا، وإن تجاوزوه في الزمان الآلي، فالى تراتيلهم وأناشيدهم الكنسيّة التي نظمها رؤساؤهم الروحيّون. الموارنة شعراء في صلواتهم. صلواتهم شعبيّة قريبة من نفوسهم. يخاطبون المسيح والعذراء والقدّيسين بلغة قريبة الى لغتهم اليوميّة، لا تكلّف فيها ولا تصنّع. ينتشون